سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

حِينَ يَنْطِقُ الْوَعْدُ وَيَسْقُطُ التَّكْذِيبُ

تَأْلِيف: رَدَّاد السَّلَّامِيُّ

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

حِينَ يَنْطِقُ الْوَعْدُ وَيَسْقُطُ التَّكْذِيبُ

تأليف: رَدَّاد السَّلَّامِيُّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

السورة التي تهزُّ الغفلة بإيقاع القيامة

ليست سورة المرسلات حديثًا عن القيامة فحسب، بل هي قيامةٌ مصغَّرة تقع في داخل النفس وهي تتلقّى آياتها؛ إذ تأخذ السورة بيد الإنسان من سكون العادة إلى اضطراب السؤال، ومن استقرار الوهم إلى انكشاف الحقيقة، ومن عالمٍ يراه ثابتًا حوله إلى يومٍ تتبدّل فيه موازين الوجود، فإذا الجبال التي حسبها أوتادًا تُنسف، والنجوم التي رآها معلّقة في علوّها تُطمس، والسماء التي ظنّها سقفًا لا يتصدّع تُفرج، والرسل الذين كذّبتهم الأمم يُجمعون لميقات الفصل، ثم لا يبقى في المشهد إلا الإنسان وعمله، والوعد ووقوعه، والحقيقة بعد أن تنزّلت من مقام الخبر إلى مقام الشهود.

وسورة المرسلات من السور التي لا تكتفي بأن تقدّم المعنى إلى العقل هادئًا، بل تصنع له إيقاعًا يقرع القلب قرعًا، ويلاحق الغفلة حتى لا يترك لها زاوية تختبئ فيها. إن عبارتها قصيرة في مبناها، عاصفة في أثرها، كأن كل آية منها دفعةٌ من ريح الحقيقة تمرّ على القلب فتزيح عنه شيئًا من غباره، ثم يأتي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ متكرّرًا عشر مرات، لا تكرار اللفظ الذي استُنفد معناه، بل تكرار الجرس الذي يعود كل مرة بعد مشهد جديد، فيحمل دلالة جديدة، وينزل على موضع آخر من مواضع التكذيب. فهو مرةً يأتي بعد انقلاب الكون، ومرة بعد تذكير الإنسان بأصل خلقه، ومرة بعد عرض الأرض بما أودع الله فيها من قرار ورواسي وماء، ومرة بعد تصوير النار وظلالها الكاذبة، ومرة بعد إظهار نعيم

المتقين، حتى يبدو هذا الوعيد كأنه لازمة السورة الكبرى، أو حكم المحكمة الإلهية الذي يتردّد كلما عُرض دليل وانتهت حجة وسقط عذر.

والمكذّبون في السورة ليسوا أولئك الذين نطقوا بألسنتهم بإنكار الآخرة وحدهم؛ فالتكذيب أوسع من العبارة، وقد يسكن السلوك وإن غاب عن اللسان. قد يؤمن المرء بيوم الفصل من جهة الاعتقاد، ثم يعيش كأن لا فصل ينتظره، ويعلم أن الأعمال موزونة ثم يبدّد أيامه كأن عمره شيء لا يُسأل عنه، ويقرأ أن الظالم سيقف بين يدي الله ثم ينحاز إلى الظلم حين توافقه مصلحته. وهنا يفتح التدبر بابًا دقيقًا: فليست العبرة بأن يبرأ اللسان من مقالة المكذّبين فحسب، بل بأن يبرأ العمر من أخلاق التكذيب؛ لأن حقائق الإيمان إذا لم تنتقل من العقل إلى الإرادة، ومن التصديق إلى الوجهة، بقيت معلوماتٍ مضيئة في ذهنٍ لا تهتدي بها الخطوات.

ومن هنا يقوم منهج هذا الكتاب على مرافقة السورة في حركتها الداخلية، لا على تفكيك آياتها إلى خواطر متناثرة لا يجمعها جامع. سنقف أولًا عند الألفاظ في سياقها العربي، وعند ما تدل عليه الآيات في نظمها وموقعها من السورة، مستضيئين بما قرّره أهل التفسير من المعاني المعتبرة، ثم ننتقل من الدلالة إلى الهداية، ومن المشهد القرآني إلى ما يوقظه في الضمير، من غير أن نحمل النص ما لا يحتمل، أو نجعل التأمل بديلًا عن التفسير، أو نخلط بين الإشارة الوجدانية ومراد الله المقطوع به. فالتفسير هو الأرض التي يقف عليها التأمل، والتأمل ثمرة من ثمار الفهم لا طريقٌ للاستغناء عنه؛ وما أجمل الأدب حين يكون خادمًا للحقيقة، وما أخطره حين يسحر القارئ بصورةٍ لا يسندها المعنى.

وسنقرأ السورة بوصفها بناءً متماسكًا نتعانق مشاهده على قِصر آياته؛ فهي تبدأ بقَسَم مهيب غامض الجلال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾، ثم تكشف المقصد الذي اتجه إليه القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. وما بين القسم والجواب تتحرك قوى مأمورة لا نرى تمام حقيقتها، لكنها تمضي في هذا الكون بإذن الله، ناشرةً وفارقةً وملقيةً للذكر، لتعلن منذ البداية أن الوجود ليس فوضى سائبة، وأن وراء الحركة أمرًا، ووراء الأمر حكمةً، ووراء الحكمة ميعادًا لا يتأخر. ثم ينتقل السياق إلى تفكيك الهيئة الراهنة للعالم؛ فالنجوم تُطمس، والسماء تُفتح، والجبال تُنسف، والرسل تُوقّت، وكأن السورة تنزع عن الإنسان ألفته القديمة للأشياء، لتقول له: لا تجعل دوام المشهد في عينك دليلًا على دوامه في قدر الله.

بعد ذلك تسأل السورة سؤال التفخيم والتهويل: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾. والفصل هنا ليس مجرد فصل بين فريقين في نهاية التاريخ، بل هو انكشاف الحدود التي عبثت بها الدنيا؛ يوم يُفصل بين الحق الذي لُفَّ عليه الباطل، وبين الباطل الذي تزيّا بثوب الحق، وبين المظلوم وظالمه، وبين الصادق والمتاجر بصدقه، وبين النيات التي تشابهت أعمالها واختلفت بواعثها. إن الحياة تختلط فيها الأوراق، وقد يرتفع من يستحق الخفوت، ويُقصى من يستحق التقديم، ويُدان البريء، ويُصفّق للمدّعي؛ لكن هذا الاختلاط مؤقت، لأن وراءه يومًا اسمه يوم الفصل، وحسب المظلوم عزاءً أن الله لم يسمّه يوم الالتباس.

ثم تعيد السورة الإنسان إلى تاريخه وإلى جسده وإلى الأرض التي يمشي عليها، فتقيم الحجة عليه من فوقه ومن تحته ومن داخله: أما رأى ماذا صنع الله بالمجرمين من قبله؟ أما تذكّر أنه خُلق من ماء مهين، ثم حُفظ في قرار مكين، بقدر معلوم؟ أما نظر إلى الأرض التي تضم الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها، وإلى الجبال الشامخة، وإلى الماء الفرات؟ إن أدلة

الآخرة ليست غريبةً عن الحياة؛ فاليد التي أنشأت أول مرة لا يعجزها أن تعيد، والأرض التي تتسع لميلاد الإنسان وسعيه وموته قادرةٌ بأمر ربها أن تشهد بعثه، والقدرة التي أحاطت بضعفه جنينًا لن تضل عنها ذراته بعدما يصير ترابًا.

وسنصغي كذلك إلى المقابلات الكبرى التي تقوم عليها السورة: الوعد يقابله التكذيب، والذكر يقابله الإعراض، ويوم الفصل يقابله عبث الحياة، والظل الحقيقي في الجنة يقابله ذلك الظل الكاذب الذي لا يظلّل ولا يدفع اللهب، والمتاع القليل يقابله المصير الطويل، والركوع الذي دُعي إليه الإنسان في الدنيا يقابله العجز عن الانتفاع حين تنتهي مهلة العمل. وهذه المقابلات لا تُراد لتجميل العبارة، بل لبناء البصيرة؛ فالقرآن يعلّم الإنسان أن الأشياء لا تُعرف بأسمائها التي يطلقها الناس عليها، وإنما بحقائقها وعواقبها: قد يسمّي المرء اندفاعه وراء الشهوة حريةً، وهو في حقيقته استعباد؛ وقد يسمّي إعراضه استقلالًا فكريًا، وهو عجز عن الركوع للحق؛ وقد يرى اللهب ظلًا لأنه يهرب من حقيقة أشد، غير أن الأسماء لا تغيّر المصائر.

وتبلغ السورة ذروةً مزلزلة في خاتمتها: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾. إنها ليست خاتمة سؤال ينتظر جوابًا، بل إعلانٌ بأن الحجة قد استوفت بيانها؛ فإذا لم يوقظ هذا القرآن قلبًا، بما فيه من خبر صادق، وبرهان ظاهر، ومشهد مهيب، وتذكير بأصل الإنسان ومآله، فأي حديث بعده يملك أن ينقذه من عناده؟ إن المشكلة عندئذ ليست فقرًا في الأدلة، بل فسادًا في قابلية التلقي؛ ليست غياب النور، بل إصرار العين على الإغماض. ولذلك لا تنتهي السورة بوصف تفصيلي جديد، وإنما تنتهي بوضع الإنسان أمام مسؤوليته الأخيرة: لقد قيل له ما يكفي، فلم يبق إلا أن يختار بين أن يؤمن بالحديث الذي يحييه، أو يستمر في التكذيب حتى يرى ما كان يُوعَد.

ولسنا نقرأ هذه السورة لنقيم في رعب المشاهد بعيدًا عن رحمة الله، فإن الإنذار نفسه بابٌ من أبواب الرحمة؛ إذ ما كان الله لينذر عباده بهذا البيان لو أراد أن يفاجئهم بالعقوبة من غير حجة، وما كان ليكرّر التحذير لو لم يكن في الزمن متّسعٌ للرجوع. إن كل ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تحمل في باطنها نداءً خفيًا للأحياء: ما دام ذلك اليوم لم يأتِ، فلا تجعل نفسك من أهله، وما دمت تسمع الوعيد خبرًا، فلا تنتظر حتى تراه عيانًا. إن الرحمة لا تكون دائمًا يدًا ناعمة تمسح الألم، بل قد تكون صوتًا مهيبًا يوقظ النائم قبل أن تلتهم النار أطراف فراشه.

بهذه الروح ندخل سورة المرسلات: لا دخول السائح الذي يتأمل جمال المشهد ثم يمضي كما جاء، بل دخول الإنسان الذي يعلم أن السورة تتحدث عنه، وأن يوم الفصل ليس فصلًا من تاريخ الآخرين، وأن سؤالها الأخير موجّه إلى قلبه، وأن التكرار فيها لا يسمح له بالاختباء وراء المعرفة المألوفة. سنقرأها لنعرف كيف يصنع اليقينُ وعيًا بالزمن، وكيف يحوّل الإيمانُ بالآخرة تفاصيل الحياة إلى مسؤوليات، وكيف ينقذ الركوعُ الإنسانَ من كبريائه، وكيف يصبح القرآن آخر حجةٍ على القلب وأول رحمةٍ تهديه.

إنها سورةٌ تبدأ بقوى مرسلة تمضي بأمر الله، وتنتهي بإنسان يُسأل عن موقفه من حديث الله؛ وبين البداية والنهاية يتبيّن أن الكون كله مطيع، وأن المعضلة الوحيدة هي هذا القلب الذي أُعطي حرية الاختيار، فاختار أحيانًا أن يعاند النظام الذي يسبّح فيه كل شيء. ومن هنا تبدأ الرحلة: من حركة المرسلات إلى سكون المكذّبين، ومن صدق الوعد إلى وهم الإنكار، ومن أهوال الفصل إلى ظلال المتقين، حتى يقف القارئ عند آخر السورة لا ليسأل: ماذا جرى للمكذّبين؟ بل ليسأل السؤال الذي من أجله نزلت الموعظة: ماذا أحدث القرآن فيَّ، وأيُّ إنسان سأكون قبل أن يأتي يوم لا يمكن فيه للإنسان أن يعيد كتابة مصيره؟

الفصل الأول

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا: حِينَ يَتَحَرَّكُ الْكَوْنُ بِأَمْرِ اللَّهِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾

تفتتح السورة أبوابها بقَسَم لا يسمّي الأشياء في صورة جامدة، بل يستحضرها أفعالًا متحركة: إرسال، فعصف، فنشر، ففرق، فإلقاء؛ حتى لكأن القارئ لا يقف أمام كلمات، وإنما يقف في قلب حركة كونية متتابعة، تتدافع مراحلها بقوة لا تعرف التردد. وقد اختلف المفسرون في المراد بهذه الأوصاف؛ فقيل هي الرياح في بعض مراتبها، وقيل الملائكة في بعض وظائفها، وقيل تتوزع الدلالات بينهما، وليس اختلافهم مما يبدّد جلال المشهد، بل يكشف سعته؛ فالقاسم الجامع أن في ملك الله جنودًا مرسلة، لا تتحرك عن هوى، ولا تتأخر عن أمر، تؤدي ما كُلّفت به في دقة تفضح وهم الإنسان حين يظن الكون متروكًا للمصادفة.

تجيء ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ وفي لفظ «عُرفًا» إيحاء بالتتابع والاطراد، كعُرف الفرس يتلو بعضه بعضًا، وقيل: مرسلات بالمعروف؛ وفي كلتا الدلالتين يلوح معنى الانتظام، فكأن هذه القوى لا تندفع اندفاعًا أعمى، بل تتوالى ضمن تقدير محكم. إن الإنسان يرى الريح ولا يرى الأمر الذي أرسلها، ويرى أثرها في السحاب والشجر والبحر ولا يرى السلسلة الخفية التي تصل الحركة بالمشيئة؛ ولهذا يخطئ حين يحسب أن ما غاب عن حسه غاب عن

الوجود. والقرآن يعيد تربية البصيرة لتقرأ الآثار لا باعتبارها أحداثًا مكتفيةً بذاتها، بل رسائل تشير إلى سلطان الله الذي يعمل في الأشياء من غير أن تحيط به الأبصار.

ثم تتصاعد الحركة: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾. وما كان مرسلًا في رفق قد يأتي في صورة عاصفة، لأن القوة الواحدة في ملك الله تتنوع آثارها بحسب الحكمة: ريح تحمل السحاب فتحيي أرضًا، وريح تشتد فتقتلع غرور قوم، وملك ينزل بالرحمة، وملك ينزل بالعذاب، ووحي يفتح قلبًا مستعدًا ويقيم الحجة على قلب معاند. ليست الرقة وحدها رحمة، ولا الشدة دائمًا نقمة؛ فقد تعصف بالإنسان محنةٌ فتقتلع منه وهمًا كان سيهلكه، وقد تنساب عليه النعمة في هدوء فتغمره بغفلة لا ينتبه لخطرها. العبرة ليست بصورة الحادثة منفردة، بل بما أودع الله فيها من هداية، وبما يصير إليه القلب بعدها.

ثم يأتي النشر: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾، فينتقل الإيقاع من شدة العصف إلى امتداد ما يُنشر؛ كأن القوة لم تأتِ للهدم المجرد، وإنما لتهيئة الأفق لما ينبغي أن ينتشر فيه. فالريح تعصف ثم تنشر السحاب، والملائكة تنزل بما ينشر الهدى، والوحي ينتشر في الأرواح بعد أن يعصف بأوثانها الباطنة. وما أكثر ما يحتاج القلب إلى عاصفة تسبق النشر؛ إذ لا ينتشر نور جديد في مساحة احتلتها الظلمات كلها، ولا تستقر حقيقة في نفس ملأتها الأوهام، ولا يبدأ الإصلاح من طلاء السطح بينما الجذور الفاسدة ممتدة في الأعماق. لا بد أحيانًا من ريحٍ تهزّ ما ألفناه، كي تنفتح فينا جهةٌ لما لم نكن نراه.

ومن النشر إلى الفرق: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾؛ لأن نشر الحق لا يكتمل حتى يفصل بين الأشياء التي خلطها الهوى. إن وظيفة الوحي ليست أن يضيف إلى الإنسان معلومةً جديدة فحسب، بل أن يمنحه ميزانًا يفرّق به بين الهدى والضلال، وبين الرغبة والحق، وبين الرحمة

التي تصلح واللين الذي يفسد، وبين القوة التي تحمي والبطش الذي يعتدي. وأزمة الإنسان ليست دائمًا أنه لا يرى الأشياء، بل أنه يراها متداخلة بلا معيار؛ فيسمّي خوفه حكمة، ويسمّي طمعه اجتهادًا، ويسمّي تعصبه وفاءً، ويسمّي قسوته ثباتًا. فإذا ألقى الله الذكر، لم يكتف بأن ينير الطريق، بل كشف الأسماء الزائفة التي علّقها الهوى على انحرافاته.

ثم تبلغ الحركة غايتها في قوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾. فالكون الذي تحرك في مطلع السورة ينتهي إلى الكلمة التي تخاطب الإنسان؛ وكأن العصف والنشر والفرق تمهيدٌ لوصول الذكر إلى موضعه. والملائكة تلقي وحي الله إلى رسله ليقيم الله به الحجة على عباده؛ فيقطع أعذارهم، وينذرهم عاقبة الطريق. والذكر «عذرًا» بما يفتح من أبواب التوبة، ويبيّن من سبل النجاة، ويقيم من الحجة التي لا تترك الإنسان يتعلل بأنه لم يعرف؛ وهو «نذرًا» لأنه يكشف الخطر قبل الوقوع، ويرسم نهاية الطريق قبل أن تبلغه الأقدام.

ثم يأتي جواب القسم حاسمًا لا يحتمل التخفيف: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. لم يقل: قريب من الوقوع، ولا محتمل الوقوع، بل سمّاه واقعًا، كأن المستقبل قد دخل في حكم الحاضر لفرط يقينه. فما يعلمه الله لا تحيط به احتمالات البشر، وما وعد به لا تعترضه قوة، والزمن الذي يفصلنا عنه لا ينقص من حقيقته شيئًا؛ إنما يحجب المشهد عن أعيننا حتى يحين ميقاته. وهنا يتمايز إيمان اللسان عن يقين القلب: فاللسان يقول إن القيامة آتية، أما القلب الموقن فيعيد ترتيب حياته على ضوء مجيئها، ويحذر أن يستثمر عمره كله في بناء ما سيتركه، ثم يصل إلى ما سيبقى وليس معه له شيء.

إن أول علاج للتكذيب في السورة هو أن يُنظر إلى انتظام الكون؛ فمن رأى جنود الله تمضي في وظائفها، وفهم أن الريح لا تنفلت من أمره، وأن الملائكة لا تعصيه، وأن الوحي لا ينزل

عبثًا، أدرك أن الوعد بالآخرة ليس قولًا معزولًا عن نظام الوجود، بل هو خاتمة ذلك النظام وتمام حكمته. فالذي ضبط إرسال الرياح، ونزول الملائكة، وحركة الأفلاك، وأطوار الأجنة، وتعاقب الحياة والموت، لم يترك مصائر الإنسان بلا فصل، ولم يجعل الظالم والمظلوم ينتهيان إلى تراب واحد لا يتبعه حساب.

وهكذا تضعنا الآيات السبع الأولى أمام حقيقة حاسمة: كل شيء يتحرك نحو الغاية التي قدّرها الله، بينما يستطيع الإنسان وحده أن يعيش غافلًا عن غايته. الرياح مرسلة، والملائكة مأمورة، والذكر ملقى، والحجة قائمة، والوعد واقع؛ فماذا بقي إلا أن يستيقظ القلب قبل أن تتحول الحقيقة التي يسمعها اليوم إلى مشهد يراه غدًا؟

الفصل الثاني

إِذَا انْهَدَمَ الْمَشْهَدُ الْمَأْلُوفُ: الْكَوْنُ فِي لَحْظَةِ الْفَصْلِ

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۞ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۞ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۞ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۞ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

ما إن تقرر السورة أن ما يوعد الناس به واقع، حتى تبدأ في عرض طلائع ذلك الوقوع، فلا تترك الحقيقة في غيبها المجرد، بل تقرّبها إلى المخيلة بمشاهد تهدم صورة العالم التي استقرت في الحس طويلًا. إن الإنسان يألف الأشياء حتى يتوهّم أن الألفة تمنحها الخلود، يرى النجوم كل ليلة فيحسب أن ضوءها قانون لا ينقطع، ويرفع بصره إلى السماء فيراها متماسكة فيظن أن تماسكها طبيعة ذاتية، وينظر إلى الجبال فتخدعه صلابتها عن هشاشتها أمام أمر الله. لكن القرآن يحرر العقل من عبودية المشهد الراهن، ويعلّمه أن الثبات الذي يراه ليس خاصية مستقلة في الموجودات، بل أثرٌ من آثار إمساك الله لها؛ فإذا جاء الأمر الآخر تبدلت القوانين، وانطفأت الأنوار، وانفرج السقف، وطارت الجبال، ولم يبق من هيئة العالم التي عرفها الإنسان إلا الذكرى.

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، تبدأ القيامة من تلك المصابيح البعيدة التي طالما استعان بها المسافرون على معرفة الطريق، واستدل بها الناظرون على روعة الخلق واتساع الملك. والطمس ذهاب الضوء ومحو الأثر؛ فتلك النجوم التي بدت للعين علاماتٍ ثابتة، وأقسم الله بمواقعها لعظم شأنها، تُسلب يومئذ نورها الذي عرفناه، لأنها أدت وظيفتها وانقضى نظام

العالم الذي كانت جزءًا منه. وليس طمس النجوم مجرد تغير فلكي هائل، بل هو إعلان بأن كل نور مستعار لا بد أن يعود إلى مصدره، وأن الأشياء لا تملك من ذاتها ما نظنه ملكًا ثابتًا لها. فالنجمة لا تضمن ضوءها، كما أن الإنسان لا يضمن قوته ولا شبابه ولا ذكاءه ولا جاهه؛ وكل ما يلمع في الحياة إنما يلمع إلى أجل، ثم تُطوى الوظيفة ويُسترد العطاء.

وكم من إنسان بنى يقينه على نجوم صغيرة صنعها لنفسه؛ شخصٍ يظن أنه لن يغيب، أو مالٍ يتوهم أنه لن ينقص، أو مكانةٍ يحسب أنها لا تُنتزع، أو قوةٍ بشرية يراها فوق الزوال. ثم يأتيه الطمس في صورة موت، أو فراق، أو تبدل حال، فيكتشف أن الضوء الذي علق به قلبه لم يكن أصلًا، وإنما كان قبسًا مؤقتًا. إن سورة المرسلات لا تطلب من الإنسان أن يكره الأنوار الدنيوية، بل أن يعرف حدودها، فيستضيء بها ولا يعبدها، ويشكرها ولا يتكئ عليها اتكاء من ظنها باقية. فمن عرف أن النجوم نفسها ستُطمس، لم يجعل مصيره رهين نجمةٍ بشرية قد تنطفئ قبل أن يكتمل الطريق.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾؛ والفرج هو الشق والفتح، فإذا ذلك البناء الذي رآه الإنسان فوقه محفوظًا متماسكًا قد انفتح وتصدع، وانكشفت من ورائه حقائق اليوم الآخر. إن السماء في الوعي البشري رمز البعد والمنعة والاستقرار، يُقال عن الشيء المستحيل إنه لا يقع حتى تنشق السماء، فإذا السورة تجعل هذا الذي تستبعده النفوس أولًا من أوصاف اليوم الموعود. وكأنها تقول: إن موازين الاستحالة التي كوّنتموها من تجاربكم الأرضية لا تصلح للحكم على قدرة الله؛ فما يبدو لكم ممتنعًا إنما يبدو كذلك لأنكم تقيسون القدرة المطلقة بأسبابكم المحدودة.

وتحمل صورة السماء المفرجة معنى آخر يمسّ باطن الإنسان؛ فالدنيا قائمة على الحجاب، والآخرة يوم انكشاف. في الدنيا يحجب الجسد أسرار الروح، وتحجب الكلمات بعض النيات، وتحجب المظاهر حقائق أصحابها، ويحجب الزمن نتائج الأعمال؛ أما في يوم الفصل فتتصدع الحجب كلها، فلا يبقى للمرء موضع يختبئ فيه من نفسه. ما أكثر ما يعيش الإنسان مستورًا بالسماء الاجتماعية التي شيدها حول صورته: مديح الناس، وحسن الظن، واللقب، والمنصب، والهيئة الصالحة؛ لكنه سيقف يومًا وقد فُرجت سماؤه الخاصة، وظهر ما كان وراءها. والعاقل لا ينتظر انشقاق الحجب الكبرى ليعرف نفسه، بل يشق حجب الوهم عنها بالمحاسبة، ويرى عيوبه في زمن يمكنه فيه أن يصلحها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾؛ لم يقل زُلزلت فحسب، لأن الزلزلة قد تبقي للأشياء بعض صورتها، أما النسف فهو اقتلاعٌ وتذرية وإذهاب للتماسك، حتى تصير الجبال هباءً متناثرًا بعدما كانت في العين عنوان الرسوخ. وهنا يبلغ انقلاب المشهد ذروته: النجوم تفقد ضوءها، والسماء تفقد التحامها، والجبال تفقد ثباتها؛ أي إن الجهات الثلاث التي أحاطت بتجربة الإنسان—ما فوقه، وما أمام بصره في البعيد، وما يقوم على الأرض حوله—تتغير كلها، فلا يبقى له من مألوفه ملجأ.

والجبال ليست مجرد كتل شاهقة في هندسة العالم؛ إنها في وجدان الإنسان استعارة لكل ما يستند إليه ويحسبه غير قابل للسقوط. غير أن السورة تقتلع من القلب وهم الحصانات الأرضية: لا سلطة جبل، ولا ثروة جبل، ولا جماعة جبل، ولا تاريخ جبل، إذا صدر أمر الله بالنسف. وكم من قوة بدت لأهل زمانها راسخة رسوخ الجبال، ثم مرت عليها إرادة الله فإذا هي خبر في كتاب، وأطلال في أرض، وعبرة لا يعتبر بها إلا قليل. إن بقاء الباطل

زمنًا لا يجعله ثابتًا، وضخامته لا تمنحه شرعية، وتأخر سقوطه لا يعني أنه نجا؛ فالجبل نفسه يظل جبلًا حتى تأتي لحظة النسف، ولا تشكّل صلابته قبلها اعتراضًا على نهايته بعدها.

غير أن السورة لا تعرض انهيار الكون للدهشة الجمالية، ولا تستدعي الرهبة لكي يرتعش الخيال ثم يهدأ؛ فالتحول الكوني كله تمهيد لمحكمة الرسالة: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾، أي جُعل لها وقت معلوم تجتمع فيه للشهادة على أممها والفصل بينها وبين من كذّبها. وهنا يظهر مقام الرسالة في ميزان الوجود: فالنجوم تُطمس، والسماء تُفرج، والجبال تُنسف، لكن كلمة الله التي حملها الرسل لا تضيع؛ بل يُعاد استدعاء التاريخ كله إلى موعد تُوزن فيه مواقف البشر منها. تزول أضخم الأشياء المادية، ويبقى موقف الإنسان من كلمة الحق محفوظًا؛ لأن قيمة الحياة لم تكن في ضخامة ما بنى الناس، وإنما في وجهتهم الأخلاقية وهم يبنون.

إن الرسل الذين أوذوا في الدنيا، وسُخر منهم، وطُردوا، واتُّهموا بالسحر والجنون والكذب، يُجمعون في اليوم الذي تسقط فيه أبنية المكذّبين كلها. وفي هذا عزاء لكل صاحب حق ضاقت عليه الدنيا لأنه لم ير انتصار الحق كاملًا في عمره؛ فالتاريخ ليس المحكمة الأخيرة، والجمهور ليس القاضي الأخير، والغلبة العابرة ليست الحكم الأخير. قد يموت الرسول قبل أن يرى زوال دولة التكذيب، وقد يرحل الصادق والافتراء يلاحق اسمه، لكن الله قد أجّل الشهادة إلى يوم لا يستطيع فيه مفترٍ أن يزوّر سجلًا، ولا متكبر أن يرفع صوته فوق صوت الحقيقة.

وفي قوله ﴿أُقِّتَتْ﴾ إحساس بالدقة التي لا يتقدم معها الموعد ولا يتأخر. فالقيامة ليست حدثًا ضائعًا في مستقبل مجهول عند الله، وإن كان زمنها مجهولًا للخلق؛ إنها مؤقتة في علمه، وكل أمة تسير إليها، وكل نفس تقترب منها بمقدار ما ينقص من عمرها. نحن نستبطئ الوعد

لأننا نقيسه بنبض أعمارنا القصيرة، أما الله سبحانه فيعلم موضع اللحظة من نظام الأبد كله. وما بين الإنسان ويوم القيامة ليس امتداد التاريخ فقط، بل موته الذي يغلق عليه باب العمل؛ فإذا مات بدأت حقائق الآخرة تحيط به، وسقط عنه وهم المهلة الطويلة.

ثم يرد السؤال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾. والسائل هو العليم الذي لا يخفى عليه الجواب، ولكن الاستفهام هنا لتفخيم اليوم وإعداد القلب لاستقبال اسمه. كأن الآيات توقف سرعة المشاهد لحظة، وتترك السؤال معلقًا فوق الأنقاض الكونية: لأي شيء حدث هذا كله؟ لماذا طُمست النجوم وفُرجت السماء ونُسفت الجبال وجُمعت الرسل؟ إن النهاية ليست فوضى كونية عمياء، بل طريق إلى غاية أخلاقية: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾. فالعالم لا ينتهي لأن طاقته نفدت وحدها، بل لأن ميعاد الحكم قد جاء، والكون الذي كان مسرحًا للاختبار يُطوى لتُعلن نتيجة الاختبار.

﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾، وما أشد حاجة المظلوم إلى هذا الاسم، وما أثقله على الظالم، وما أعدله في عالم تختلط فيه الوجوه والرايات والدعاوى. إنه اليوم الذي تُفصل فيه الخصومات التي أعجزت محاكم الأرض، وتُكشف فيه الجرائم التي دُفنت أدلتها، وتُستخرج فيه الدموع التي سقطت بعيدًا عن الشهود، ويُعرف فيه الصادق الذي خذله عصره، والكاذب الذي زيّنت له البلاغة كذبه. وفيه يُفصل أيضًا بين العمل وصورته، وبين العبادة وعادتها، وبين الإنفاق ورياءه، وبين الصمت وحكمته أو جبنه، وبين الكلمة ونيتها؛ فليس الفصل بين الأشخاص وحدهم، بل بين الطبقات الخفية داخل الفعل الواحد.

لقد استطاع الإنسان في الدنيا أن يصنع مناطق رمادية يختبئ فيها من الحكم، وأن يخلط المسميات حتى تضيع الحدود: فيسمّي العدوان دفاعًا، والخيانة سياسة، والسكوت عن الظلم

اتزانًا، والتملق أدبًا، والكبر كرامة، والتفريط تسامحًا. لكن يوم الفصل يعيد لكل حقيقة اسمها، ولكل فعل وزنه، ولكل نية وجهها. وحينئذ يفهم الإنسان أن أخطر ما فعله في الدنيا لم يكن الذنب وحده، بل تزوير اسم الذنب حتى يستطيع أن يطمئن إليه؛ إذ ربما تاب من خطيئة اعترف بها، لكنه قلّما يتوب من خطيئة منحها اسم الفضيلة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؛ صيغة ترفع اليوم فوق ما يستطيع الخيال أن يحيط به. مهما تخيل الإنسان اجتماع الخلائق، وانكشاف الصحائف، ووضع الموازين، وشهادة الجوارح، وقيام الناس لرب العالمين، فإن حقيقة اليوم أعظم من أن تستوعبها صورة بشرية. نحن نعرف منه بقدر ما يحتمل وعينا، كما يعرف من يقف على الشاطئ شيئًا عن البحر، لكنه لا يحيط بما في أعماقه. ولذلك لا ينبغي أن يتحول وصف الآخرة إلى مادة ذهنية باردة؛ فالمألوف اللفظي قد يخدع القلب، حتى يقرأ الإنسان «يوم الفصل» كما يقرأ اسم يوم من أيام الأسبوع، مع أن هذا اليوم هو اللحظة التي تتجمع فيها معاني حياته كلها لتصدر عليها كلمة لا تُراجع.

ثم تهبط الخاتمة كالحكم بعد تمام المشهد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. والويل كلمة تجمع التهديد والهلاك وشدة العذاب، لكنها هنا لا تأتي بلا مقدمات؛ فقد سبقها قسم، وتقرير، وتصوير لانقلاب الكون، وتوقيت للرسل، وتعظيم ليوم الفصل. لم يؤخذ المكذّبون على غرة، بل أُقيمت أمامهم دلائل القدرة والحكمة، ثم ظلوا يردّون الوعد لأن الاعتراف به يكلّفهم تغيير حياتهم. إن أكثر التكذيب ليس وليد غموض البرهان، بل وليد خوف الهوى من نتائجه؛ فالذي يقر بيوم الفصل لا يستطيع أن يمنح نفسه حقًا مطلقًا في الشهوة والظلم، ولذلك يفضّل بعض الناس هدم فكرة المحكمة على أن يغيّروا ما يفعلونه قبل انعقادها.

ولا يقتصر التكذيب على إنكار الكلام؛ فقد يكون إنكارًا عمليًا صامتًا. من عرف أن السماء ستُفرج ثم ستر قلبه بالنفاق، فقد أخذ بنصيب من أخلاق المكذّبين؛ ومن علم أن الجبال ستُنسف ثم احتمى بسلطان بشر، كأن الله لا يبلغه، فقد تسرب الوهم إلى يقينه؛ ومن آمن بيوم الفصل ثم رضي أن يخلط الحق بالباطل لمصلحةٍ عاجلة، فقد ناقض بسلوكه بعض ما صدّقه بلسانه. ولهذا يتكرر الوعيد في السورة، لكي لا يحصر القارئ التكذيب في طائفة مضت، بل يفتش عن ظلاله الدقيقة في نفسه.

إن هذا الفصل من السورة لا يريدنا أن نعيش مرعوبين من زوال النجوم والجبال بقدر ما يريد أن يحررنا من الاتكاء عليها. فمن استند إلى الله لم يفزعه أن تتغير هيئة الكون، لأن رب النجوم قبل طمسها هو ربها بعد أن تُطمس، ورب السماء قبل فرجها هو ربها بعد أن تُفرج، ورب الجبال قبل نسفها هو ربها بعدما تصير هباء. الذي يتبدل هو الخلق، أما الخالق سبحانه فلا يلحقه تغير ولا زوال؛ ومن علّق قلبه بالباقي نجا من الانهيار الداخلي حين تتهاوى الأشياء الفانية.

وهكذا يقف المؤمن أمام هذه الآيات لا باعتباره قارئًا لنهاية العالم فقط، بل شاهدًا على سقوط كل ما بالغ في منحه الثبات. يسأل نفسه: أي نجمة استعار منها يقينه؟ وأي سماء بشرية توهّم أنها لن تنشق؟ وأي جبل من المال أو الجاه أو الجماعة ظنه حصنًا من أمر الله؟ ثم يعيد بناء قلبه على الحقيقة الوحيدة التي لا تُنسف: أن الله حق، وأن وعده حق، وأن رسله حق، وأن يوم الفصل آتٍ، وأن النجاة لا تكون بالعثور على جبل أشد رسوخًا، بل بالفرار إلى رب الجبال قبل أن يأمرها أن تصير هباء.

الفصل الثالث

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ: حِينَ يَتَحَوَّلُ التَّارِيخُ إِلَى شَاهِدٍ

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

بعد أن رفعت السورة أبصارنا إلى النجوم وهي تُطمس، وإلى السماء وهي تُفرج، وإلى الجبال وهي تُنسف، أعادتنا إلى الأرض، لا لننظر هذه المرة إلى مادتها، بل إلى الذاكرة التي تراكمت فوقها؛ إلى الأمم التي مشت في دروبها قبلنا، وشيدت مدنها، ورفعت قصورها، وتكلمت بلهجة البقاء نفسها التي يتكلم بها كل جيل حين تغويه قوته عن رؤية نهايته. فالآخرة التي كذب بها المكذبون ليست وحدها دليلًا على إمكان زوالهم؛ إن التاريخ من ورائهم مزدحم بنهايات الذين ظنوا مثل ظنهم، وقالوا ما قالوا، واستكبروا بما استكبروا به، ثم دخلوا في الغياب، وبقيت الأرض بعدهم صامتة إلا من آثار تروي لمن يفهم أن القوة لا تعقد مع صاحبها عهدًا بالخلود.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾؛ سؤالٌ لا يطلب جوابًا، لأن الجواب منقوش في أطلال الحضارات، ومحفوظ في أخبار الأمم، جارٍ على الألسنة التي تتناقل مصائر عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط وفرعون ومن سار على طريقتهم. لكنه سؤال يطلب من الإنسان أن يخرج من عمى اللحظة الراهنة؛ فالمتكبر يرى نفسه في مركز الزمن، كأن التاريخ بدأ يوم ظهر هو، وكأن السنن ستتوقف احترامًا لقوته، وكأن المصائر التي لحقت بمن قبله كانت حوادث استثنائية لا قوانين متكررة. لذلك يوقظه القرآن بسؤال يعيد نسبته إلى مسار البشر: ألم يكن قبلكم

أولـون؟ ألم يكونـوا أشـد منكم قـوة، وأثبت آثارًا، وأكـثر جمعًـا؟ فأين هم، وأين مـا كانوا يستطيلون به على الضعفاء؟

إن التاريخ في القرآن ليس مخزنًا للحكايات، ولا معرضًا لفضول الباحثين، بل هو امتداد للحجة الإلهيـة في الزمن. فكما يدل الخلق الأول على إمكان البعث، تدل نهايات الأمم على أن للظلم أجلًا، وأن لله سننًا لا تحابي أحدًا. وإذا كان الإنسان قد لا يرى العقوبة في حياته القصيرة، فإن التاريخ يمنحه عينًا أطول من عمره؛ عينًـا ترى قرونًا تتعاقب، ودولًا ترتفع ثم تتصدع، وجبابرة يُحاطون بهالة لا يجرؤ أحد على اختراقها، ثم يصبحون أسماء يشرح المؤرخون أسباب سقوطها. وما بين لحظة الطغيان ولحظة الانهيار قد يطول الزمن على المظلوم، لكنه لا يطول على السنة التي تمضي إلى غايتها في صبر لا يعني الغفلة.

وقد أسند الله الإهلاك إلى نفسه: ﴿نُهْلِكِ﴾، ليخلع عن التاريخ قناع الفوضى، وليعلم الإنسان أن ما يجري في العالم ليس منفصلًا عن سلطان الله وتقديره، وإن تعددت أسبابه الظاهرة وتشابكت. لكن هذا لا يبيح لأحد أن يعيّن كل كارثة عقوبةً لجريمة بعينها من غير دليل، ولا أن يوزع أحكام الله على الناس بحسب هواه؛ فالغيب لله، وحكمته أوسع من تصوراتنا. وإنما الذي تقرره الآية أن الإجرام لا يخرج عن حسابه، وأن القوى البشرية مهما علت لا تستقل بمصيرها عن رب العالمين، وأن ما يبدو للناس نتيجة سياسية أو عسكرية أو طبيعية قد يقع ضمن تقدير إلهي محكم لا يحيطون بكل وجوهه.

والإهلاك الذي تشير إليه السورة ليس ظلمًا يقع بلا استحقاق؛ فقد جاءت الرسل، وقامت الحجج، وتتابعت الإنذارات، وأُمهلت الأمم حتى صار الإصرار طبيعة عامة، وتحول الفساد من زلة أفراد إلى نظام يحمي نفسه ويعاقب من يقاومه. عندئذ لم يكن السقوط مفاجأةً

أخلاقية، وإن كان مفاجأة زمنية للغافلين. فالله سبحانه لا يعاجل عباده بكل ذنب، ولو فعل ما بقي على الأرض من أحد؛ لكنه يمهل، ويفتح أبواب الرجوع، ويبعث النذر، ويقيم العلامات، حتى إذا أصر المجرمون وظنوا أن الإمهال إهمال، جاءهم من سنن الله ما لم يحتسبوا.

وما أخطر أن يسيء الإنسان فهم المهلة؛ إذ قد يظن بقاء النعمة شهادةً على سلامة الطريق، ويقرأ تأخر العقوبة بوصفه رضا، ويعتبر ازدياد قوته دليلًا على صحة موقفه. والحقيقة أن النعمة قد تكون امتحانًا، وأن الإمهال قد يكون فرصة للتوبة أو استدراجًا لمن يزداد طغيانًا، وأن امتداد الليل لا يعني أن الصباح نسي موعده. إن السورة تريد أن تنزع عن الزمن حياده الظاهري: فالأيام التي تمر على الظالم ليست فراغًا، بل عدّ تنازلي لا يسمع صوته، والفرص التي تتكرر ليست براءة، بل حجج تتراكم؛ فإذا جاء الأجل لم يكن ما يقع بداية القصة، وإنما خاتمة فصول طويلة لم يقرأها الغافل.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾؛ تحمل «ثم» امتدادًا في الزمن، وتحمل «نتبعهم» رهبة الطريق الذي تلحق فيه أمة بأمة، وجيل بجيل، ومكذب بمكذب. الأولون لم يكونوا حادثة أغلقت أبوابها، فالسنة لا تنتهي بانتهاء أول من جرت عليه، وإنما تتجدد كلما تجدد سببها. وليس معنى الآية أن كل متأخر يهلك لمجرد تأخره، بل أن من اتبع الأولين في الإجرام لحق بهم في المصير، وأن التشابه الأخلاقي يصنع تشابهًا في العاقبة، ولو اختلفت اللغات والوجوه وأشكال العمران.

قد تتغير أدوات الطغيان، لكن روحه واحدة؛ كان المستكبر قديمًا يرفع صرحًا ليظهر سلطانه، وقد يرفع اليوم شاشةً أو مؤسسة أو منظومة خطاب، وكان يطارد الرسول أو

المؤمن بالسيف، وقد يطارده اليوم بالتشهير أو الحصار أو تزوير الوعي، وكان القديم يقول: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وقد لا يقولها المعاصر بلسانه، لكنه يبني سياساته وقراراته كأن لا قوة فوقه. تتطور الحضارة، لكن النفس التي لم يزكّها الإيمان تستطيع أن تستعمل أدواتها الحديثة في إعادة إنتاج الجريمة القديمة بصور أشد تعقيدًا.

ومن هنا لا ينبغي أن يقرأ المؤمن أخبار الهالكين بإحساس النجاة المضمونة، كأن القرآن يتحدث دائمًا عن قوم آخرين. المقصود من القصة ليس أن نتلذذ بإدانة الماضي، بل أن نكشف ما بقي منه فينا. كم من فرعون صغير يسكن نفسًا لا تحتمل أن تُراجع؟ وكم من ثمود تتكرر حين تتحول القدرة إلى عدوان؟ وكم من قوم نوح يتجددون حين يصبح طول الإعراض حجة عند أصحابه على أن الوعيد لن يقع؟ وكم من قوم لوط يعودون حين يُعاد تعريف الفطرة حتى يُجعل المنكر معروفًا ويُطارد من يذكّر بالحدود؟

إن الأمم لا تبدأ طريق الهلاك يوم تقع الكارثة، بل تبدأه يوم تفقد القدرة على سماع الحق؛ يوم يصبح الناصح عدوًا، ويغدو الصادق ثقيلًا، ويتحول المفسد إلى رمز، ويُقاس الصواب بمقدار ما يصفق له الجمهور، لا بمقدار موافقته للحق. وحين تُغلق أبواب المراجعة من الداخل، قد تبقى الجدران قائمة أعوامًا، لكن الانهيار الأخلاقي يكون قد سبق الانهيار العمراني. فالحضارة لا تسقط أول ما يسقط من أبنيتها، بل حين تنهار معاييرها، ويُمنح الباطل شرعية، ويصبح العدل غريبًا في المجال الذي كان ينبغي أن يحميه.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾؛ جملة قصيرة، لكنها تضع التاريخ تحت قانون أخلاقي صارم. «كذلك»؛ أي على هذا النحو الذي رأيتم آثاره وعرفتم أخباره. و«نفعل» بصيغة المضارع، لتظل السنة حاضرة غير محصورة في زمن غابر. و«بالمجرمين» لا بالأسماء والأجناس

والأنساب؛ فليس العقاب تحيزًا ضد قوم لذواتهم، وإنما هو أثر الإجرام حين يستحكم وتقوم الحجة على أهله. يغيّر الناس أسماءهم ورواياتهم، لكن ميزان الله لا تضلله الأسماء؛ إنه ينظر إلى حقيقة الفعل، وموقع القلب، ومقدار الظلم، وما سبق ذلك من إنذار وإمهال.

والإجرام في أصل دلالته يحمل معنى القطع والكسب؛ فكأن المجرم يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ويفصل نفسه عن نظام الحق، ويكسب من الذنوب ما يصير وصفًا له. ليس كل مذنب مجرمًا بالمعنى الذي تصوره الآية؛ فالإنسان يضعف ويخطئ ثم يندم ويعود، والله يحب التوابين. أما الإجرام الذي تجري عليه سنة الهلاك فهو خطيئة استقرت وصارت مشروعًا، وباطلًا تحرسه القوة، وكبرًا يرفض الاعتراف، وعدوانًا يتسع حتى يهدد معنى الحياة وحقوق الناس. الفرق عظيم بين نفس سقطت وهي تبكي، ونفس صعدت على خطاياها وهي تفاخر؛ الأولى قريبة من باب الرحمة، والثانية تهدم الباب على نفسها كلما ازداد غرورها.

وفي الآيات رحمة خفية بالمؤمنين الذين يعيشون تحت سطوة واقع يبدو بلا مخرج. إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ يمنع الظالم من احتكار المستقبل؛ فكما لم يخلد الأولون، لن يخلد الآخرون، وكما مضت السنة فيمن بنى قوته على الإجرام، فإن تغير الوسائل لا يلغي القانون. لكن هذه الرحمة لا ينبغي أن تتحول إلى خيال كسول ينتظر سقوط الظلم بلا عمل؛ فالإيمان بالسنن يحمّل المؤمن مسؤولية أن يكون في جانبها الصحيح، وأن يقاوم الإجرام بما يستطيع، ويقيم العدل في مساحته، ويصون نفسه من أن يستعير أخلاق خصمه بحجة مقاومته.

فقد ينتصر المظلوم على الظالم في الظاهر، ثم يحمل في داخله بذرة الاستعلاء ذاتها، فإذا تمكّن أعاد إنتاج الجريمة بوجه جديد. وهنا يصبح التاريخ دائرة من تبديل المواقع، لا مسيرة نحو الإصلاح. القرآن لا يريد أن ينقل القوة من يد مجرم إلى يد مجرم آخر، وإنما يريد أن يحرر الإنسان من منطق الإجرام نفسه. ولهذا كان التدبر في هلاك الأولين امتحانًا للضمير: هل نرفض الظلم لأنه ظلم، أم لأننا لم نحصل على نصيبنا منه؟ وهل نريد عدلًا يشمل خصومنا، أم نريد غلبة تتيح لنا أن نفعل بهم ما أنكرناه عليهم؟

ثم يعود الوعيد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. جاء في الفصل السابق عقب مشاهد القيامة، ويجيء هنا عقب مشاهد التاريخ؛ فكأن السورة تحاصر التكذيب بدليلين: دليل المستقبل الذي أخبر به الله، ودليل الماضي الذي ترك آثاره في الأرض. من لم تكفه أخبار القيامة، فليقرأ أطلال الهالكين؛ ومن زعم أن البعث بعيد، فليتأمل كيف صار الأقوياء الذين ملؤوا الدنيا صخبًا جزءًا من ترابها. إن الموت الصغير الذي يتكرر في الأفراد، وسقوط الأمم الذي يتكرر في التاريخ، كلاهما يفتح نافذة على النهاية الكبرى.

غير أن قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يؤخر تمام الجزاء إلى ذلك اليوم، حتى لا يظن أحد أن كل حساب قد اكتمل في الدنيا. قد تهلك أمة ويبقى من مظالمها ما لم يُقتص له، وقد يسقط طاغية من غير أن يتذوق في الأرض مقدار ما أذاقه لآلاف الناس، وقد يموت مجرم في فراشه بعيدًا عن العقوبة التي توقعها البشر؛ لكن يوم الفصل ليس تابعًا لمحاكم التاريخ الناقصة. ما لم تستوفه الدنيا يستوفيه العدل الإلهي، وما غاب عن السجلات لا يغيب عن الكتّاب، وما نسيه الضحايا من شدة الألم لا ينساه من أحصى كل شيء عددًا.

والويل للمكذبين لأنهم لم يعجزوا عن رؤية التاريخ، بل عجزوا عن الاعتبار به. رأوا المقابر فاتسعت أحلامهم كأنها ليست نهاية أمثالهم، وقرؤوا أخبار الطغاة فبحثوا في تفاصيل قوتهم ولم يسألوا عن عاقبتهم، ووقفوا أمام الآثار منبهرين بعظمة البناء، ولم يسمعوا الصمت الذي يقول إن البانين قد مضوا. إن العين قد ترى الأثر ولا ترى العبرة، والعقل قد يحفظ التاريخ ولا يفهم سننه، والثقافة قد تزيد معلومات الإنسان من غير أن تنقص غروره.

ولهذا لا يقاس الوعي التاريخي بكثرة معرفة التواريخ والأسماء وحدها، بل بقدرة المرء على استخراج الهداية من مصائرها. قد يحفظ الإنسان تواريخ سقوط عشرات الدول، ثم يتصرف في حياته بالطريقة نفسها التي أسقطتها؛ وقد يعرف تفاصيل طغيان فرعون، ثم يمارس فرعونية صغيرة داخل بيته أو مؤسسته أو جماعته. ليست المسافة بيننا وبين الأمم البائدة عدد القرون، بل مقدار اختلاف الأخلاق؛ فإذا تشابهت القلوب تقلص الزمن، وصار القديم حاضرًا فينا وإن لبس ثياب العصر.

وتعلّمنا الآيات أن العاقل لا ينتظر حتى يصبح أثرًا لكي يفهم؛ ينظر في مصير غيره، فيستخرج من نهايته فرصة لبدايته الجديدة. يرى قبر المتكبر فيدفن كبره قبل أن يُدفن، ويرى انهيار الظالم فيُسقط ظلمه قبل أن يسقط، ويرى تبدد الثروة فيجعل ماله جسرًا للخير قبل أن ينتقل إلى غيره، ويرى أن الأمم تُتبع بعضها بعضًا فيدرك أن عمره ليس استثناءً من قانون الفناء. تلك هي نعمة التاريخ: أن يسمح لك أن تتعلم من فاتورة دفعها غيرك، وأن تنجو بعبرة استخرجتها من جرح لم يقع في جسدك.

إن سؤال السورة: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ ينبغي أن يبقى مفتوحًا في ضمير كل جيل، لا ليزرع اليأس من العمران، بل ليطهّره من الغرور؛ فالمؤمن يبني، لكنه لا يؤلّه بناءه، ويقوى،

لكنه لا يجعل القوة برهان الحق، ويورّث الحضارة، لكنه يعلم أن أخلاقها هي التي تحمي معناها، لا ارتفاع جدرانها. إن الأمم التي تحرس عدالتها، وتستمع إلى النقد، وتردع الظلم، وتفتح أبواب التوبة والإصلاح، إنما تتعامل بوعي مع سنن البقاء؛ أما التي تعاقب الناصح، وتكافئ المنافق، وتستبدل الحقيقة بالدعاية، فإنها تكتب فصلها الأخير ولو كانت أضواء مدنها لا تزال ساطعة.

هكذا تحوّل السورة التاريخ من ماضٍ انتهى إلى مرآة تقف أمام الحاضر؛ فلا يعود السؤال: لماذا هلك الأولون؟ بل: ما الأسباب التي حملوها فأهلكتهم، وهل نحمل منها شيئًا؟ ولا يعود الأمل: نحن مختلفون عنهم لأن أدواتنا أحدث، بل: نحن ننجو بقدر ما تكون أخلاقنا أصلح. فالله الذي أهلك الأولين ليس غائبًا عن الآخرين، وسنته لا تشيخ، وميزانه لا يتبدل؛ ومن لم يقرأ آثار من سبقه بعين الاعتبار، كتب بيده أن يصير أثرًا يقرؤه من يأتي بعده.

الفصل الرابع

مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ: الْإِنْسَانُ بَيْنَ ضَآلَةِ الْبِدَايَةِ وَدِقَّةِ التَّقْدِيرِ

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

بعد أن أخذت السورة الإنسان إلى مصائر الأمم، وأرته كيف تنتهي القوى التي توهمت الخلود، تعيده الآن إلى ما هو أقرب إليه من التاريخ، وأشد التصاقًا بحقيقته: إلى نفسه، إلى اللحظة الأولى التي لم يكن فيها اسمًا ولا صورةً ولا صوتًا، ولم يكن يملك من أمره إرادة ولا اختيارًا. فالذي قد يجادل في أخبار الماضين، أو يتعامى عن آثارهم، يحمل في جسده نفسه حجةً لا يستطيع الانفصال عنها؛ إنه الكائن الذي بدأ من ماء مهين، ثم مضى به تقدير الله في ظلمات الخلق حتى خرج إنسانًا مكتمل الهيئة، قادرًا على التفكير والكلام والجدال، ثم استعمل بعضهم العقل الذي خُلق له لينكر خالقه، واستعمل اللسان الذي سوّاه الله ليكذّب بوعده.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾؛ سؤال يهبط بالإنسان من المنصة التي شيّدها لغروره إلى الموضع الذي بدأ منه فعلًا. وما أشد المسافة بين هيئة المتكبر وهو يمشي في الأرض مختالًا، وبين أصله الأول الذي لا يملك لنفسه حركةً ولا بقاء. لم تبدأ قصة الإنسان من تاج، ولا من قوة، ولا من وعي يخطط لمستقبله، بل من ماء قليل ضعيف تستقذره الأبصار إن انفصل عن سياق الخلق، ثم شاء الله أن يجعله مبدأً لهذه الأعجوبة البشرية بما فيها من عقل ووجدان وذاكرة وخيال.

ووصف الماء بأنه «مهين» ليس إهانة للإنسان الذي كرّمه الله، وإنما هو هدم للغرور الذي يفصل النتيجة عن بدايتها، والقدرة المكتسبة عن واهبها. فالقرآن يجمع في نظرته إلى الإنسان بين حقيقتين لا يصح أن تبتلع إحداهما الأخرى: حقيقة التكريم الذي رفعه بالروح والعقل والتكليف، وحقيقة الضعف الذي يردّه إلى التواضع والافتقار. فإذا نسي الإنسان تكريمه عاش وضيعًا تحت شهواته، وإذا نسي أصله عاش متعاليًا على خالقه وخلقه، والاستقامة أن يعرف أنه مكرّم بما وهبه الله، فقير إلى الله في أصل وجوده وبقائه ومصيره.

إن التكبر في ضوء هذه الآية يبدو تناقضًا فاضحًا، كيف يتكبر من لم يختر مادته الأولى، ولا الزمن الذي وُلد فيه، ولا ملامح وجهه، ولا أسرته، ولا الأرض التي خرج إليها، ولا يدفع عن نفسه مرضًا إذا حل، ولا يمنع جسده من الشيخوخة إذا جاء أجلها؟ إن المتكبر لا يملك الأشياء التي يتكبر بها ملكًا ذاتيًا، لقد تلقاها كما يتلقى المسافر وديعةً يستعملها زمنًا، لكنه نسي صاحب الوديعة، وتوهّم أن ما في يده شهادة استحقاق أبدي.

وليس المقصود من تذكير الإنسان بأصله أن يزدري جسده أو يحتقر وجوده، بل أن يرى المعجزة في التحول: كيف خرج هذا السمع من ماء مهين؟ وكيف انفتحت منه عينان على الألوان والمسافات؟ وكيف نشأت فيه ذاكرة تحفظ الوجوه والأصوات؟ وكيف تولّد منه قلب يحب ويخاف ويرجو، وعقل يسأل عن نفسه والوجود؟ كلما كانت المادة الأولى متواضعة، كان ظهور هذا الخلق العظيم منها أبلغ في الدلالة على قدرة الخالق؛ فالآية لا تصغّر الإنسان لذاته، وإنما تصغّر دعواه في الاستقلال، ثم ترفعه بانتسابه إلى صنعة الله.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾؛ ينتقل الماء الضعيف إلى مستقر محفوظ، وهو الرحم الذي هيأه الله لاستقبال بداية الحياة، فصار للضعف قرار، وللبذرة الصغيرة موضع أمين، وللخلق الذي

لم يكتمل حرمة يصونه بها تدبير الله. ولفظ «قرار» يوحي بالسكون بعد انتقال، وبالاستقرار الذي يحتاج إليه كل نمو، أما «مكين» فيوحي بالقوة والثبات والحفظ. فيجتمع ضعف المخلوق وقوة الوعاء، ليظهر أن الرحمة الإلهية تحيط بالإنسان قبل أن يعرف معنى الرحمة، وأن العناية تسبقه قبل أن يستطيع الدعاء أو الشكر.

في ذلك القرار المكين لم يكن الجنين يعرف أمه، ولم يكن يطلب غذاءه بلسان، ولم يكن يدرك الأخطار التي صُرِفَت عنه، ومع ذلك كانت أسباب الحياة تصل إليه في صمت، وينمو عضوًا بعد عضو، وتُرسم ملامحه من غير أن يمسك قلمًا، ويُهيأ للخروج إلى عالم لم يره. وهذه الحقيقة تفتح في القلب بابًا من اليقين: إن الله الذي رعى الإنسان حين لم يكن يعي حاجته، لا تنقص خزائن رحمته بعدما وعى وسأل؛ والذي دبّر له في الظلمات أسباب نموه، قادر على أن يدبر له في ظلمات المحن مخارج لا يراها.

غير أن الإنسان كثيرًا ما يثق برحمة الله الماضية ثم يقلق من رحمته المقبلة؛ يعرف أنه عَبَر مراحل لم يكن له فيها حول، لكنه حين يواجه شأنًا من شؤون الحياة يتعامل معه كأن الكون قد سُلّم إليه وحده، وكأن نجاته متوقفة على قدرته المحدودة. إن ذكر «القرار المكين» يعيد إليه ذاكرة الأمان الأولى: لقد كنت في موضع لا تدير فيه شيئًا، ومع ذلك أدير لك كل شيء. وما التوكل إلا أن يستعيد القلب هذا المعنى من غير أن يترك العمل؛ يبذل سببه كاملًا، ثم يعلم أن الذي حفظ البدايات هو الذي يملك النهايات.

وفي الآية كذلك تذكير بحرمة الحياة قبل ظهورها؛ فالإنسان لم يكتسب كرامته حين نطق أو عمل أو أصبح نافعًا في ميزان المجتمع، بل أحاطه تقدير الله وهو في القرار المكين. ليست قيمة الإنسان مرهونة بقدرته الإنتاجية، ولا بسلامة جسده، ولا بمكانته، ولا بمدى انتفاع

الآخرين منه؛ له حرمة لأنه خلق الله، ولأنه حلقة من تقدير مقصود، لا فائض مادة ألقته المصادفة. وحين تُقاس كرامة البشر بما يقدمونه وحده، يصبح الضعيف والجنين والمريض والشيخ عبئًا في حسابات المنفعة؛ أما ميزان الوحي فيحفظ لهم إنسانيتهم قبل كل حساب.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ لا يبقى الجنين في قراره بلا أجل، ولا يتحرك نموه اعتباطًا، بل يمضي إلى حد معلوم في علم الله، قد أحاط سبحانه بمراحله ومقداره وزمن خروجه وما يتم له من خلق. وهنا تدخل كلمة «القدر» إلى أعمق مواضع التكوين، لتخبر الإنسان أن حياته لم تبدأ في الفوضى، وأن أول نبضة خفية فيه كانت واقعةً ضمن علم محيط. قبل أن يكتشف الزمن كان له موعد، وقبل أن يعرف العدد كانت أيام طوره محسوبة، وقبل أن يفتح عينيه كان معلومًا عند الله في أي لحظة سيخرج إلى الضوء.

والقدر المعلوم لا يحكم بداية الإنسان وحدها، بل يظل ظله ممتدًا على حياته كلها؛ لكل طور زمن، ولكل قوة حد، ولكل لقاء أجل، ولكل مكث نهاية. غير أن الإنسان يتألم لأنه يريد للأشياء أن تسير بحسب استعجاله، ويظن أن تأخر ما يحب خلل في التوقيت، أو أن مجيء ما يكره كان ينبغي أن ينتظر. والآية تعلّمه أن الحكمة لا تقاس دائمًا بما يتفق مع رغبته الآنية؛ فالجنين لو خرج قبل اكتمال قدره كان خروجه خطرًا، ولو بقي بعد أجله انقلب القرار الذي حفظه إلى موضع يضيّق عليه. وهكذا كثير من أقدار الحياة: قد يكون التأخر إعدادًا، وقد يكون المنع حماية، وقد يكون الإخراج من موضع الأمان الظاهر شرطًا للدخول في حياة أوسع.

إن الرحم مأوى، لكن البقاء فيه بعد اكتمال الأجل هلاك؛ والدنيا كذلك قرار مؤقت، تحفظ الإنسان زمن الابتلاء، لكنها ليست وطن الخلود. يولد الطفل حين يُخرَج من العالم

الوحيد الذي عرفه إلى عالم يجهله، ويحسب الخروج—لو كان له أن يعيه—نهاية الأمان، مع أنه بداية حياة أوسع. والموت، في ميزان الإيمان، انتقال آخر من قرار محدود إلى عالمٍ تنكشف فيه حقائق لم تكن الحواس الدنيوية مهيأة لرؤيتها. وبين الميلاد والموت يتعلم المؤمن أن تبدل المراحل ليس ضياعًا ما دام الذي قدّر المرحلة الأولى هو الذي يقدّر ما بعدها.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾؛ تتجمع في هذه الكلمة معاني القدرة والتقدير والإحكام. فقد قدّر الله أطوار الخلق، ومقادير الأعضاء، وأزمنة التكوين، وصفات الإنسان، وما يتصل بوجوده من أسباب، فجاء الخلق في تناسق يعجز العقل كلما اتسعت معرفته به عن أن يحيط بأسراره. ليست القدرة الإلهية قوة تفعل فحسب، بل حكمة تضع كل شيء في موضعه، وعلم يحيط بما كان وما سيكون، ومشيئة لا يعجزها شيء.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾؛ ثناءٌ يملأ القلب تعظيمًا، ويوقظه إلى الفارق الذي لا يُقاس بين قدرة الخالق وقدرات الخلق. الإنسان يستطيع أن يعيد تشكيل مادة موجودة، وأن يصنع من الأشياء ما أذن الله له في اكتشاف قوانينه، لكنه لا يخلق أصل الحياة من عدم، ولا يمنح خليةً سرَّها، ولا يحيط بجميع الاحتمالات المتفرعة من لحظة واحدة. وكل تقدم يبلغ إليه العلم لا يصغر المعجزة، بل يكشف طبقات أدق من إحكامها؛ فكلما عرف الإنسان شيئًا من تفاصيل التكوين، ازداد علمًا بمقدار ما كان يجهل.

وهنا يتضح وجه الحجة على البعث: أيكون الذي خلق الإنسان من ماء مهين، وحفظه في قرار مكين، ونقله طورًا بعد طور إلى قدر معلوم، عاجزًا عن أن يعيده بعدما يموت؟ إن الإعادة في قياس العقل ليست أعظم من الابتداء، وإن كانت قدرة الله لا تُقاس عليها سهولة وصعوبة؛ فهو سبحانه لا يعجزه ابتداء ولا إعادة. لكن القرآن يخاطب الفطرة بما تعرف: من

رأى البناء قائمًا أمامه لم يستبعد قدرة بانيه على إعادته، ومن شهد الربيع يخرج من أرض ماتت لم يجعل إحياء الأجساد بعيدًا.

إن المكذب بالبعث يحمل برهان الرد عليه في جسده؛ كل نبضة في قلبه شهادة، وكل خلية تتجدد حجة، وكل عضو تكوّن من ذلك الماء المهين يقول له: إن الذي أنشأك لم يخلقك عبثًا، والذي أحكم بدايتك لم يترك نهايتك للعدم. ومن عجيب الغفلة أن يستخدم الإنسان عقله في إنكار من وهبه العقل، وأن يستمد قوة الجدل من الجسد الذي خلقه الله، ثم يرفع تلك النعمة نفسها حجابًا بينه وبين المنعم.

ولئن كانت الآية تقيم الحجة على المكذب، فإنها تربي المؤمن كذلك على أدب النظر إلى نفسه. لا يحتقر أصله، لأنه موضع ظهور القدرة، ولا يتكبر بنتيجته، لأنها هبة. لا ييأس من ضعفه، لأن الله أنشأ القوة من الماء المهين، ولا يغتر بقوته، لأنها قابلة لأن تعود ضعفًا. إن المؤمن يعيش بين ذاكرة الأصل وبصيرة المصير: يعرف من أين جاء، فيتواضع؛ ويعرف من الذي أنشأه، فيعز؛ ويعرف إلى أين يمضي، فيستقيم.

وتقول الآية لكل من يستصغر البدايات: لا تحكم على الأشياء من مادتها الأولى وحدها. إنسان كامل خرج من ماء مهين، وشجرة عظيمة خرجت من بذرة صغيرة، وتحول روحي قد يبدأ بدمعة لا يراها أحد، ومشروع إصلاح قد يبدأ بكلمة صادقة في قلب واحد. نحن نحتقر البذور لأن أعيننا لا ترى الأشجار المطوية فيها، أما تقدير الله فيعامل البدايات بحسب ما أودع فيها من إمكان. فلا تيأس من خير قليل إذا باركه الله، ولا تستهِن بخطوة صادقة لأن الطريق طويل؛ فالقدرة التي نقلتك من طور لا يُرى إلى إنسان يملأ مكانًا في العالم قادرة على أن تنقل قلبك من وهنه إلى مقام لم تتخيله.

ثم يأتي الوعيد للمرة الثالثة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. جاء أولًا بعد مشاهد يوم الفصل، ثم بعد مصارع الأمم، ويأتي هنا بعد دليل الخلق. كأن السورة تقول: إنهم كذبوا رغم أن المستقبل أُنذروا به، والماضي شهد أمامهم، وأنفسهم حملت البرهان. فأين يذهبون من الحجة؟ إن رفعوا أبصارهم رأوا آثار القدرة في السماء، وإن نظروا خلفهم رأوا آثار العدل في التاريخ، وإن رجعوا إلى أنفسهم رأوا سر الخلق في أجسادهم؛ فما بقي للتكذيب إلا العناد.

والويل هنا أشد وقعًا لأن المكذب ينكر بلسان صنعه الله، ويعرض بقلب أنشأه الله، ويمشي مبتعدًا بقدمين سوّاهما الله. كل أداة استعملها في التمرد كانت هبة من الذي تمرد عليه، وكل لحظة تأخر فيها العذاب كانت مددًا من الحلم الإلهي، وكل حجة ردها كانت باب نجاة فُتح له فأغلقه. وليس أبلغ في كشف جحود الإنسان من أن يعيش محمولًا على نعم الله، ثم يتصرف كأن وجوده صنعته الخاصة.

لكن الآية، مع وعيدها، تبقي باب العودة مفتوحًا ما دام الإنسان يسمعها في الدنيا. فالذي ذكّرك بأصلك يريد أن يطهرك من غرورك قبل أن يحاسبك عليه، والذي عرّفك بتقديره يريد أن تعود إلى حضن العبودية قبل أن ينتهي الأجل، والذي حذرك من الويل لم يسق إليك الوعيد لتقنط، بل لتنجو. وما التوبة إلا ميلاد آخر: يعود فيه القلب، بعد أن تلوث بأوهامه، صغيرًا بين يدي ربه، معترفًا بأنه لم يصنع نفسه، ولم يستغن لحظة عن خالقه.

وهكذا ينتهي هذا المقطع وقد اختصر قصة الإنسان كلها في كلمات: مادة ضعيفة، فقرار حافظ، فأجل معلوم، فتقدير محكم، ثم بعث وحساب. وبين الماء المهين ويوم الفصل يعيش الإنسان زمنًا قصيرًا يسمى العمر، يمتحن فيه: أيحمل ضعف أصله إلى تواضع العبودية، أم يحوّل نعمة الخلق إلى وقود للكبرياء؟ فإذا عرف بدايته حقًا، لم يستعلِ على أحد؛ وإذا

عرف دقة تقديره، لم يظن نفسه مهملًا؛ وإذا عرف قدرة خالقه، لم يستبعد البعث؛ وإذا عرف أن الأجل معلوم، لم يؤجل توبته كأن الزمن ملك يده.

الفصل الخامس

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا: الْمَهْدُ الَّذِي يَضُمُّنَا وَاللَّحْدُ الَّذِي يَنْتَظِرُنَا

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

لم تكد السورة تفرغ من تذكير الإنسان برحمه الأول حتى نقلته إلى الرحم الأكبر الذي يظل يحيط به ما دام حيًّا، ثم يضمه حين يصير ميتًا: الأرض. ففي المقطع السابق كان الإنسان نقطةً خفية في قرار مكين، وفي هذا المقطع يصبح فردًا بين أحياء كثيرين تحملهم الأرض فوق ظهرها، ثم جثمانًا بين أموات كثيرين تستره في بطنها. وبين القرارين تمتد حياته كلها، يخرج من رحم أمه إلى رحم الأرض، ثم يغادر سطحها إلى باطنها، ولا يخرج في طور من أطواره عن الإحاطة الإلهية التي أعدّت لكل مرحلة موضعها وأسبابها وأجلها.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾، والكِفات ما يضم ويجمع، فكأن الأرض وعاء واسع يضم البشر وما تتصل به حياتهم، ولا يضيق باختلاف أجناسهم وأزمانهم وحاجاتهم. يسيرون فوقها، ويبنون من ترابها، ويأكلون مما أخرجته، ويشربون مما اختزنته أو أنزل الله عليها، ثم إذا انتهت خطاهم فتحت لهم جوفها، فاحتوت الأجساد التي طالما مشت على ظهرها. إنها بيت الأحياء ومثوى الأموات، ومائدة الجائعين وستر الراحلين، ومسرح السعي وصمت النهاية.

ولفظ «كفاتًا» يرد الإنسان إلى معنى الاحتواء الذي ينساه لكثرة ما يألفه؛ فالأرض ليست مساحة جامدة يقف عليها مصادفة، بل مخلوق هيّأه الله لاحتضان الحياة. فيها من خصائص الاستقرار، ومقادير العناصر، ومسالك الماء، وأسباب النبات، وتنوع البيئات، ما يجعلها صالحة لهذا الوجود الإنساني المتشابك. ولو اختل بعض ما ألفه الإنسان من نظامها، لتحولت عاداته اليومية البسيطة إلى أمنيات بعيدة. لكنه يعيش داخل النعمة طويلًا حتى تفقد في حسه اسم النعمة، ويحسب أن الهواء والماء والتربة والجاذبية وتعاقب الليل والنهار حقوق ذاتية لا تستدعي شكرًا.

إن أخطر الحجب ليس غياب الآية، بل الاعتياد عليها؛ فالمعجزة التي تتكرر كل صباح قد تصير في عين الغافل أقل إثارة من حادث شاذ، مع أن دوامها هو بعض وجه إعجازها. يشرب الإنسان الماء كل يوم فلا يقف عند صفائه إلا إذا تلوث، ويمشي على الأرض مطمئنًا فلا يشعر بثباتها إلا إذا اهتزت، ويتنفس من غير جهد فلا يعرف قيمة الهواء إلا إذا ضاق صدره. النعمة الصامتة لا تطالبنا بصوت، ولذلك قد يعلو فوقها صخب الرغبات؛ وكلما نال الإنسان شيئًا تطلع إلى ما ينقصه، حتى يمضي عمره يحدق في الغائب، بينما يحمل الحاضر بين يديه من العطاء ما لا يستطيع إحصاءه.

﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾؛ كلمتان تجمعان كل سكان الأرض، من الذين ترتفع أصواتهم على ظهرها، إلى الذين صمتوا في باطنها. الأحياء يملؤون المدن حركةً، ويظنون أن المشهد لهم وحدهم، والأموات تحت أقدامهم في سكون كثيف، كأن الأرض تجمع مرحلتين من القصة في وقت واحد: فوقها من يقول «سأفعل»، وتحتها من انقطع عنه الفعل؛ فوقها من ينازع على شبر، وتحتها من كانت له الأملاك الواسعة فلم يصحب منها إلا موضع جسده؛ فوقها من ينسج خططه لعقود مقبلة، وتحتها من باغته الأجل قبل أن يتم يومه.

وليس ذكر الأحياء والأموات هنا تقسيمًا سكانيًا باردًا، بل موعظة تختصر حركة الزمن؛ فكل حيّ يسير نحو الموضع الذي صار إليه من قبله، وكل ميت كان ذات يوم ممتلئًا بذلك الشعور الذي يجعل الإنسان يستبعد موته رغم يقينه به. نحن لا نشك في الموت من جهة المعرفة، لكننا كثيرًا ما نستبعده من جهة الشعور؛ نراه حقيقة عامة تخص «الناس»، ثم نعيش كأن لنا استثناء خفيًا من قانونهم. ولذلك لا يكفي أن يعرف الإنسان أنه سيموت؛ لا بد أن تدخل هذه المعرفة في طريقة اختياره، وفي ميزان خصوماته، وفي مقدار تعلّقه، وفي ترتيب أولوياته.

إن تذكر الموت لا يعني أن يخاصم الإنسان الحياة، بل أن ينقذها من التفاهة. الذي يعرف أن أيامه محدودة لا يوزع قلبه على كل ضجيج، ولا يمنح خصومة صغيرة سنوات من روحه، ولا يؤجل كلمة حق أو اعتذارًا أو توبة كأن الغد قد وُقّع باسمه. الموت لا يقول لنا: لا تعيشوا، بل يقول: عيشوا ما يستحق أن يُحمل معكم؛ فليس كل ما يستهلك العمر جديرًا به، وليس كل انتصار صغير مكسبًا إذا خسر الإنسان في سبيله صفاء قلبه وكرامة أخلاقه.

والأرض وهي تكفت الأموات تسوّي في ظاهر القبور بين الذين بالغت الدنيا في التفريق بينهم؛ تدخل إليها الأجساد من غير ألقابها، ولا تدخل معها المناصب والحراسات والصور التي صُنعت لأصحابها. هناك تسقط اللغة الاجتماعية التي وزعت الناس إلى طبقات، وتبقى حقيقة العبد وعمله. قد يكون قبر فقير إلى جوار قبر غني، لكن المسافة الحقيقية بينهما ليست مقدار ما امتلكا فوق الأرض، بل مقدار ما حمل كل واحد منهما إلى باطنها من إيمان وتقوى وحقوق محفوظة أو مظالم متراكمة.

ومع ذلك، ليست الأرض نهاية القصة؛ فلو كانت القبور خاتمة الإنسان، لما استقام معنى يوم الفصل الذي بنته السورة منذ بدايتها. الأرض تكفت الأموات زمنًا، كما كفت الرحم الجنين زمنًا، ثم يأتي أمر الخروج. وكما لم يكن القرار المكين مقبرةً للبداية، فإن القبر ليس إلغاءً للإنسان، بل مرحلة بين عالمين. والذي أخرج الحي من موضع لم يكن يملك الخروج منه، يخرجه مرة أخرى من أرض ضمته بأمره. إن التشابه بين الرحم والأرض يفتح بابًا بديعًا في تدبر البعث: كلاهما ظلمة، وكلاهما قرار، وكلاهما طور خفي، ومن كليهما يكون خروج لا يصنعه الإنسان لنفسه.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾؛ بعد صورة الأرض الجامعة يأتي ذكر الجبال التي تثبت في النظر وترتفع في الأفق. «رواسي» بما توحي به من الثبات، و«شامخات» بما توحي به من العلو والهيبة؛ فكأن الآية تجمع في الجبل رسوخه في الأرض وارتفاعه نحو السماء. وقد مرّ بنا في مشهد القيامة أن هذه الجبال نفسها ستُنسف، أما هنا فهي معالم نعمة في النظام الحاضر. وهذا الجمع بين المشهدين يعلّمنا أن الشيء قد يكون ثابتًا بوظيفة مؤقتة، من غير أن يكون خالدًا بذاته؛ فالذي جعله راسيًا اليوم هو الذي ينسفه غدًا، وحكمة إبقائه لا تناقض حكمة إزالته عند انتهاء الأجل.

والجبال الشامخات تربي في الإنسان إحساسًا بمقادير الأشياء؛ يقف أمامها صغيرًا، فينكسر بعض وهمه بأنه مركز العالم، ويرى في صمتها الطويل ما يذكّره بقصر عمره وعجلة انفعالاته. كم خصومةٍ بدت لصاحبها كأنها ملأت الكون، بينما الجبل قائم لا يشعر بضجيجها، وكم إنسان ظن أن غيابه سيوقف العالم، ثم غاب وظلت الأرض تدور والجبال في مواضعها. الطبيعة لا تهين الإنسان حين تشعره بصغره، بل تعيده إلى حجمه الصحيح، وحين يعرف حجمه يعرف حاجته إلى الكبير المتعال.

لكن القرآن لا يقف بنا عند مهابة الجبل المجردة، بل يربطه بجاعله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾. فلا ينبغي أن تتحول عظمة المخلوق إلى حجاب عن الخالق؛ الجمال باب، لكنه قد يصير جداراً إذا وقف الناظر عنده ولم يعبر منه إلى المنعم. المؤمن يرى الجبل فيعظّم الذي أرساه، ويرى البحر فيسبح من أمسكه بحدوده، ويرى السماء فيتأمل قدرة من رفعها. أما الغافل فيمتلئ دهشةً بالمشهد ثم يعود فارغًا من معرفة صاحبه، كمن أعجبته الرسالة حتى نسي مرسلها.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾؛ من صلابة الجبال وشموخها إلى رقّة الماء وعذوبته. وقد جمعت الآية بين ما يثبت الأرض وما يحيي أهلها، بين الهيبة والحاجة، بين الراسي الذي يقف في الأفق، والسائل الذي يدخل في خلايا الأجساد. والماء الفرات هو العذب السائغ الذي يقطع الظمأ، وما أشد تواضع صورته وعظمة وظيفته؛ لا لون يلفت النظر، ولا طعم متكلف، لكنه أصل الحياة التي يتبارى الناس في زخرفتها.

وقال سبحانه: ﴿أَسْقَيْنَاكُمْ﴾، فنسب السقيا إليه، لأن وصول الماء إلى فم الإنسان خاتمة سلسلة طويلة من الرحمة: سحاب يُحمل، وماء ينزل، وأرض تستقبله، ومسالك تحفظه، وعيون تخرجه، وأسباب يسّرها الله حتى يصل إلى الظمآن. قد يمسك الإنسان بالكأس فيظن أنه حصل على الماء بماله أو جهده، لكنه لم يصنع قطرة منه، ولم يضع قانون نزوله، ولم يخلق في جسده قابلية الانتفاع به. المال اشترى الوعاء أو كلفة الوصول، أما الماء في أصله فمنحة لا يملك البشر إيجادها استقلالًا.

وفي «أسقيناكم» لطف العناية المباشرة؛ فالله الذي خلق الإنسان من ماء مهين يسقيه في حياته ماءً فراتًا. بدأ بالماء، ويستمر بالماء، ويضعف إذا حُرم الماء؛ كأن عنصرًا واحدًا يطوق قصة وجوده ليمنعه من نسيان فقره. يحمل الإنسان في جسده نسبة كبيرة من الماء، ثم قد

يتكبر كأنه صخرة مستقلة، مع أن ساعات من الحرمان تكشف مقدار هشاشته. إن الحضارة بكل آلاتها، والجيوش بكل أسلحتها، والمدن بكل أبراجها، تبقى معلقةً بقطرات تنزل من السماء أو تجري في الأرض بإذن الله.

والماء الفرات يوقظ ضمير الإنسان إلى عدالة النعمة؛ فإذا كان الله قد جعله سقيا للناس، فليس من الإيمان أن يحتكره قوي ويحرم منه ضعيفًا، أو يفسده جشع، أو تحوّله الهيمنة إلى أداة لإذلال العطاش. شكر الماء ليس قول «الحمد لله» بعد الشرب فقط، وإن كان ذلك من جميل الذكر، بل أن يصونه الإنسان من الإفساد، وأن يعرف للآخرين حق الحياة فيه، وأن يبذله للمحتاج، وأن لا يسرف فيه كأن خزائن الأرض مفوضة إلى هواه.

والآية ترسم لوحة مكتملة للضيافة الإلهية على الأرض: مكان يضم، وجبال ترسي، وماء يروي. لم يُلق الإنسان في فضاء معادٍ ثم يُطلب منه أن يدبر وجوده من العدم، بل سبقته أسباب الحياة إلى موضع وصوله؛ الأرض ممهدة، والجبال قائمة، والمياه جارية، والرزق موزع في خزائن الخلق. غير أن الإنسان قد يدخل بيت النعمة ثم يتعامل معه كأنه المالك المطلق، فيفسد الأرض التي كفته، ويجور على الأحياء الذين شاركوه فيها، وينسى الأموات الذين سبقوه إليها، ويهدر الماء الذي أُسقيه، ثم يسأل بجرأة: أين دلائل الله؟

إن الدليل تحت قدميه، وفوقه، وفي الكأس التي بين يديه؛ لكن كثرة القرب قد تخفي الأشياء كما يخفي البعد. وربما احتاج الإنسان إلى لحظة فقد حتى يرى ما كان حاضرًا: زلزال يذكّره بأن ثبات الأرض نعمة، وجفاف يذكّره بأن الماء رحمة، وموت قريب يذكّره بأن وجود أحبته فضل لا حق مؤبد. وليس المطلوب أن ينتظر سلب النعمة ليعرفها، بل أن يوقظ في نفسه عين الشكر قبل أن تفتحها الصدمة.

ثم تجيء اللازمة الرابعة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. ما وجه التكذيب بعد الأرض والجبال والماء؟ إنه تكذيب بمن جعل، وبمن رزق، وبالغاية التي من أجلها مُنحت النعم، وبالحساب على طريقة استعمالها. فليس المكذب من يقول إن الأرض غير موجودة، بل من يراها ولا يعبر منها إلى خالقها؛ وليس من ينكر الماء، بل من يشربه ثم يعيش جحودًا؛ وليس من لا يرى الجبال، بل من يراها ويحسب أن الكون خُلق بلا حكمة، وأن الإنسان سيُترك بلا سؤال.

ويحمل الوعيد هنا مفارقة مؤلمة: الإنسان الذي كفته الأرض حيًا وميتًا، وأسقاه الله ماءً فراتًا، يقابل الاحتواء بالجحود، والسقيا بالتكذيب. يعيش عمره كاملًا داخل النعمة، ثم ينكر المنعم، كمن يأكل من مائدة مضيفه وهو يزعم أن لا صاحب للبيت. إن الكفر ليس خطأً فكريًا مجردًا؛ إنه خلل في الوفاء، وقطيعة بين العطاء والاعتراف، وإصرار على أخذ الهدية من غير الالتفات إلى واهبها.

لكن الآية لا تدعو الإنسان إلى شكر عاطفي عابر، بل إلى شكر يعيد تشكيل علاقته بالعالم. إذا كانت الأرض كفاتًا، فلا يفسدها؛ وإذا كانت تضم الأحياء والأموات، فلا يستعلي على حي، ولا ينسَ مصير الراحلين؛ وإذا كانت الجبال من جعل الله، فلا يعبد القوة؛ وإذا كان الماء من سقياه، فلا يبخل بالرحمة. إن شكر النعمة أن تستعملها في الوجه الذي يرضي واهبها، وإلا فقد يتحول الحمد على اللسان إلى ستار يحجب جحود العمل.

وتعيدنا صورة الأرض الكفات إلى سؤال المصير: هذه الأرض التي تحمل خطانا تحفظ كذلك آثارها، والتي تستر أجساد الأموات ستخرجهم يومًا، والتي نشرب من مائها ستشهد كيف عشنا فوقها. ليس المكان محايدًا تمامًا في القصة القرآنية؛ فالأرض تُحدّث أخبارها، والجوارح تشهد، والصحف تنشر، وما حسبه الإنسان لحظة عابرة يدخل في سجل البقاء.

لذلك ينبغي أن يمشي المؤمن عليها بخفة من يعرف أنه ضيف ومسؤول؛ لا يثقل ظهرها بالظلم، ولا يدخل بطنها محملًا بحقوق العباد.

ما أوجز هذه الآيات، وما أوسع العالم الذي فتحته: من رحم صغير إلى أرض كبيرة، ومن حياة تضج فوق التراب إلى موت يصمت تحته، ومن جبل يشمخ إلى ماء ينساب، ومن نعمة تحيط بالإنسان إلى وعيد ينتظر من كذّب بها. وبين كل هذه الصور تقف حقيقة واحدة: أن الله لم يهمل خلقه في البداية، ولم يتركهم في أثناء الطريق، ولن يتركهم بعد النهاية. جعل لهم القرار، وكفتهم الأرض، وأرساها بالجبال، وسقاهم الماء، ثم دعاهم أن يعرفوا، ويشكروا، ويستقيموا، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه أن يعترف المكذب بالنعمة بعدما انتهى زمن الشكر.

الفصل السادس

انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ: حِينَ يَصِيرُ الْإِنْكَارُ مَصِيرًا

﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

تنقلب السورة فجأة من خطاب البرهان إلى خطاب الجزاء، ومن تذكير الإنسان بالنعم التي احتوته في الدنيا إلى سوق المكذبين نحو الحقيقة التي أنكروا وجودها. لقد كانت الأرض كفاتًا، والجبال رواسي شامخات، والماء فراتًا، وكانت أبواب النظر والتوبة مفتوحة، وكان في العمر متسع لأن يقول المرء: آمنت، ورجعت، واستغفرت. أما الآن فقد انتهى زمن الاختيار، ولم تعد النار خبرًا يُجادل فيه، بل صارت وجهة يُؤمر المكذبون بالانطلاق إليها: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

ما أثقل هذا الأمر، وما أقسى المفارقة التي يحملها؛ ففي الدنيا كان الإنسان مأمورًا أن ينطلق إلى الصلاة والحق والخير والنجاة، وكان يستطيع أن يتباطأ أو يعرض أو يسخر، أما في الآخرة فيؤمر بالانطلاق إلى ما لا يحب، فلا يملك أن يتأخر. كانت له في الدنيا إرادة يستطيع بها أن يختار طريقه، فلما بددها في التكذيب، صار في الآخرة مسوقًا إلى نهاية الطريق الذي اختاره. إن الحرية التي مُنحت للإنسان لم تكن إذنًا بالعبث، بل أمانة يكتب بها مصيره؛ وكل اختيار صغير يمارسه اليوم هو خطوة صامتة نحو الوجهة التي ستنكشف غدًا.

ولم يقل: انطلقوا إلى النار فحسب، بل قال: ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، ليكون في العبارة عذاب المواجهة قبل عذاب النار؛ فهم لا يذهبون إلى شيء غريب لم يسمعوا به، وإنما إلى الحقيقة نفسها التي تكررت على أسماعهم، وقامت عليها الأدلة، وسخروا ممن حذرهم منها. لقد تحولت أداة التكذيب إلى اسم للمصير، وصار الماضي حاضرًا أمامهم: كل ضحكة استهزاء، وكل حجة ردوها، وكل نذير أعرضوا عنه، وكل مرة قالوا فيها إن هذا الوعد لن يقع، تجتمع الآن في كلمة واحدة: ﴿مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

وهذه من أشد صور الحسرة: أن يرى الإنسان الحقيقة بعدما انتهت إمكانية الانتفاع برؤيتها. فليس كل انكشاف نجاة؛ قد ينكشف الصواب في وقت يستطيع فيه المرء أن يصحح مساره، فيكون العلم رحمة، وقد ينكشف بعدما تُطوى صحيفة العمل، فيصبح العلم نفسه جزءًا من العذاب. في الدنيا كان الإيمان بالغيب رفعةً للإنسان، لأنه يصدّق خبر الله قبل أن تكرهه المشاهدة على التصديق؛ أما في الآخرة فإن الجميع يرى، لكن الرؤية الاضطرارية لا تعيد عمرًا مضى، ولا تنشئ عملًا صالحًا بعد انقضاء التكليف.

ويُكرر الأمر: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾. والتكرار يضاعف رهبة السوق، كأن النداء الأول يحدد الحقيقة التي أنكروها، والنداء الثاني يفتح أمامهم أول تفاصيلها. غير أن السورة تسمي ما يقصدونه «ظلًا»، وهي كلمة اعتاد الإنسان أن يجد فيها الراحة والحماية من الحر، ثم تكشف الآيات سريعًا أن هذا الظل ليس إلا دخان جهنم المتشعب، ارتفع وتفرق من شدته إلى شعب ثلاث، فهو ظل في صورته البعيدة، لكنه لا يحمل شيئًا من حقيقة الظلال الرحيمة.

إنها مفارقة رهيبة بين الاسم والمسمى، وبين الوعد الظاهري والحقيقة الباطنة. فالإنسان يهرب بفطرته من اللهب إلى الظل، لكن المكذبين يُساقون إلى ظل خرج من النار نفسها، فلا يكون هربهم إلا انتقالًا داخل العذاب. كأن السورة تجسد أمامنا خداع الباطل في الدنيا؛ فكم من شيء احتمى به الإنسان لأنه رآه ظلًا، فإذا هو فرع من فروع اللهب: احتمى بسلطان ظالم فاحترق بظلمه، واحتمى بمال حرام فأكل القلق قلبه، واحتمى بكذبة ليدفع بها حرجًا عاجلًا فأنبتت حوله عشرات الأكاذيب، واحتمى بشهوة من ألم روحه فإذا الشهوة توسّع جرحه بدل أن تضمده.

إن الظلال الكاذبة كثيرة في حياة الإنسان؛ تبدو من بعيد راحة، فإذا دخلها وجدها دخانًا. يفر من مواجهة نفسه إلى ضجيج اللهو، ويهرب من التوبة إلى تأجيل مطمئن، ويلوذ من وحشة القلب بكثرة العلاقات، ويستبدل يقين الله بإعجاب الناس، ثم يكتشف أن كل ما احتمى به لا يملك أن يحميه من نفسه، فضلًا عن أن يحميه من الله. وليست كل راحة نجاة، ولا كل ستر أمانًا؛ فقد يستر الإنسان خطيئته عن الناس، لكنها تظل مكشوفة لمن يعلم السر وأخفى، وقد يمنحه الباطل لحظة ظل، لكنه ظل متولد من النار التي ينتظره لهيبها.

﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾؛ تتفرع كتلة الدخان وتنتشر، فتغطي الأفق ولا تفتح منفذًا للنجاة. وقد شغل بعض الناس أنفسهم بمحاولة تجاوز حدود النص إلى تعيينات لا دليل قاطع عليها، غير أن رهبة الصورة قائمة في دلالتها الظاهرة: دخان كثيف متشعب يحيط بأهل النار، فيجدون فوقهم ما يشبه الظل، لكنه لا يبرد حرًا ولا يرد لهبًا. والمنهج الأسلم أن نقف عند حدود ما أخبر الله به، مستحضرين المعنى الذي أراد أن يوقظ به القلوب، من غير أن نحول الغيب إلى ساحة لتفاصيل متكلفة لا تسندها حجة.

ثم يأتي النفي المـــزدوج: ﴿لَا ظَلِيـــلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾. ليس ظليلًا يمنح الراحة، ولا ساترًا يمنع النار، فقد انتفت عنه منفعة الظل في ذاته ومنفعته في الوقاية. والعبارة تجرّد المكذب من آخر وهم قد يتعلق به، حتى الاسم الذي بدا كأنه يحمل شيئًا من الرحمة يُسلب معناه. في يوم الفصل لا تنفع التسميات التي كان الإنسان يخدع بها نفسه، فالظل الكاذب يُكشف، والأمان المزعوم ينهار، والحصن الذي صنعه الوهم يظهر عاجزًا عن دفع شرارة.

وهكذا تعمل الآخرة على رد الأشياء إلى حقائقها، بعدما أتاحت الدنيا للإنسان أن يكسوها بما شاء من أسماء. كان يستطيع أن يسمي البخل حذرًا، والرياء دعوة، والجبن حكمة، والتعصب ثباتًا، والظلم ضرورة، وأن يسمي اللجوء إلى غير الله واقعية؛ أما يوم الفصل فتسقط القواميس التي ألّفها الهوى، ويقال للباطل: هذا باطل، وللنار: هذه نار، وللظل الذي لا يظل: إنه لا يملك من الظل إلا الاسم. ومن رحمة الله أن يكشف القرآن لنا اليوم هذه الخديعة، حتى لا نكتشفها في وقت لا نستطيع فيه الفرار منها.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾؛ ينتقل التصوير من كتلة الدخان المتشعب إلى حركة النار وهي تقذف بشرر عظيم، ليس كالنقاط الصغيرة التي يألفها الإنسان من نار الدنيا، بل كالبناء الضخم في عظم منظره. وقد فُسر «القصر» بالبناء الكبير، وقيل بأصول الشجر الغلاظ أو قطع الخشب الضخمة، والمعنى الجامع في الأقوال هو تصوير هول الشرر وضخامته. فالذي كذب بالنار لأنه لم يرها، سيجد نفسه أمام نار لا تشبه ما صغّره خياله؛ شرارتها وحدها في ضخامة ما كان يعدّه في الدنيا حصنًا ومأوى.

وفي لفظ ﴿تَرْمِي﴾ قوة وحركة ومواجهة؛ ليست النار ساكنة ينتظر لهيبها من يقع فيه، بل تقذف بشررها، كأنها تعرف من أُعدت لهم، وكأن العذاب يلاحق الذين أمضوا حياتهم

يظنون أنهم يحسنون الفرار. لقد فروا من كل موعظة تزعج راحتهم، ومن كل سؤال يهدد مصالحهم، ومن كل حقيقة تطالبهم بالتغيير؛ لكن الفرار الذي صار عادة في الدنيا ينتهي إلى موضع لا مهرب فيه. وما أشد الفرق بين أن يفر الإنسان اليوم من ذنبه إلى ربه، وبين أن يفر غدًا من عذاب ربه فلا يجد جهة.

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾؛ يكتمل المشهد بتشبيه الشرر في تتابعه وضخامته وحركته بالإبل الصفر، وقيل المراد حبال السفن الغليظة السوداء التي تميل ألوانها إلى الصفرة، وعلى اختلاف ما ذكره أهل اللغة والتفسير، فإن الصورة تجمع الضخامة والتتابع واللون والحركة، حتى يكاد القارئ يرى كل الشرر تتلاحق في الفضاء كقافلة مهولة لا تحمل رزقًا ولا بشرى، بل تحمل اللهب.

والتشبيه مأخوذ من عالم عرفه المخاطبون؛ فالقرآن يقرب الغيب بما يستقر في الحس من صور، لكنه لا يجعل الصورة المحسوسة مساوية لحقيقة الآخرة. إن نار الآخرة أعظم من أن يحيط بها خيال، وإنما هذه الأمثال جسور تعبر عليها القلوب إلى بعض المعرفة. ولهذا ينبغي أن تظل الصورة مؤدية لوظيفتها الإيمانية: أن تكسر برودة التلقي، وأن تجعل الوعيد حاضرًا في الوجدان، لا أن تتحول إلى مادة للجدل الذي ينسى المقصود وهو ينشغل بتفاصيل الطريق إليه.

إن هذا المشهد لا يهدد الجسد وحده، بل يكشف مأساة الروح التي اختارت الوهم حتى صار محيطها كله نارًا. فالإنسان يبدأ احتراقه المعنوي قبل نار الآخرة حين يقطع صلته بالحق؛ يحترق بالحسد، ويختنق بدخان الكراهية، ويتشعب في قلبه الخوف من فقد ما جمع، ويلقي كذبه شررًا في علاقاته، ثم يطلب راحته في المزيد من الأسباب التي أحرقت سكينته

أول مرة. لا يعني ذلك أن عذاب الآخرة مجرد رمز نفسي؛ فهو حق كما أخبر الله، لكن آثار المعصية في الدنيا تنذر بمصيرها، وكأن النار الكبرى ترسل إلى القلب دخانًا بعيدًا ليعرف طبيعة الطريق قبل بلوغ نهايته.

وكل خطيئة تحمل في باطنها شيئًا من جزائها؛ فالكبر يعزل صاحبه، والكذب يطارده بالخوف من الانكشاف، والظلم يحوّل الناس في عينه إلى أعداء محتملين، والحسد يجعل نعم الآخرين نارًا في صدره. قد تغطي اللذة العاجلة هذا الجزاء زمنًا، كما يغطي الدخان اللهب، لكن الحقيقة تستمر في التكون تحته. والمؤمن البصير لا يسأل عن مظهر الذنب في لحظته فقط، بل عن النتيجة المطوية فيه: إلى أي شيء يقودني هذا الطريق؟ وأي نفس يصنعها مني إذا داومت عليه؟ وأي ظل أراه أمامي، وهل هو ظل رحمة أم دخان نار؟

إن الأمر ﴿انْطَلِقُوا﴾ يحمل كذلك معنى أن المصائر لا تأتي منفصلة عن المسارات. لم يجد القوم أنفسهم عند النار بلا مقدمات؛ لقد انطلقوا إليها منذ أن اختاروا التكذيب، وإن بدا لهم أنهم يتحركون في اتجاه آخر. كل يوم عاشوه بعيدًا عن الحق كان مسافةً تقرّبهم منها، وكل ظلم لم يتوبوا منه كان خطوة، وكل تحذير قابلوه بالسخرية كان إسراعًا خفيًا. نحن لا نصل إلى نهاياتنا دفعة واحدة؛ نصنعها بعادات متكررة، وقرارات صغيرة، وتنازلات نظن أن الواحدة منها لا تغيّر شيئًا، حتى يتكون الطريق تحت أقدامنا.

وبالمقابل، لا يصل أهل الجنة إلى نعيمهم مصادفة؛ إنهم ينطلقون إليه منذ الدنيا كلما قاوموا شهوة، وأدوا أمانة، وكفوا أذى، وأخفوا صدقة، واستغفروا من زلة، وثبتوا عند فتنة. قد تبدو الأعمال الصغيرة متناثرة، لكنها في علم الله طريق متصل. وما العمر إلا انطلاق

مستمر، ولو ظن صاحبه أنه واقف؛ فالوقت يحمله، والعادات تصوغه، والأيام تقرّبه، والسؤال ليس: هل نسير؟ بل: إلى أي شيء نسير؟

وتعود اللازمة الخامسة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. لكنها بعد هذا المشهد لا تبدو مجرد تهديد مكرر، بل كأنها توقيع على حقيقة رأينا بعض تفاصيلها: ويل لهم حين يصير ما أنكروه محيطًا بهم، وحين يتحول الظل الذي قصدوه إلى دخان، وحين لا يغني عنهم من اللهب، وحين تقذف النار شررًا لا يملكون دفعه. إن التكذيب لم يلغ الحقيقة، بل ألغى استعدادهم لها؛ ولم يطفئ النار، بل أطفأ في قلوبهم المصباح الذي كان يستطيع أن يدلهم على طريق النجاة.

وإذا كان الويل للمكذبين، فإن في الوعيد أمانًا لمن صدّق واستجاب؛ لأن القرآن لم يعرض المشهد ليغلق الطرق، بل ليفتح الطريق الوحيد الذي لا ينتهي إليه. ما دامت الآيات تُقرأ في الدنيا، فإن الأمر لم يصدر بعد: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وما دام الإنسان يملك أن يركع ويستغفر ويرد المظالم ويصلح قلبه، فإن الظل الحقيقي لا يزال ممكنًا. والخوف النافع ليس الذي يشل الإرادة ويوقع في القنوط، بل الذي ينتشلها من التسويف، ويقول لها: لا تجعلي مصيرك غدًا ثمرة غفلتك اليوم.

إن المؤمن لا يقرأ النار ليستمتع بتصور عذاب غيره، ولا ليمنح نفسه شهادة نجاة لمجرد انتسابه اللفظي إلى الإيمان؛ بل يقرأها ويرتجف من عدل الله، ويفتش في قلبه عن بذور التكذيب العملي، ويرجو رحمة ربه، ويهرب إليه منه. فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والعبرة بالخواتيم، ولا نجاة لأحد بعمله المجرد عن فضل الله. غير أن رجاء الرحمة لا يعني الأمن من المكر، كما أن الخوف من العذاب لا يعني سوء الظن بالرحمن؛ إنهما جناحان يحملان القلب: خوف يمنعه من الجرأة، ورجاء يمنعه من اليأس.

وما أبعد المسافة بين ظلين: ظل من دخان لا يظل ولا يغني من اللهب، وظل رحمة الله الذي يناله من صدق وآمن واتقى. بينهما تُكتب سيرة الإنسان كلها؛ فكلما اختار الحق ولو آلمه، خرج خطوةً من الدخان إلى النور، وكلما اختار الوهم لأنه أريح في لحظته، دخل شعبةً من شعب الظل الكاذب. وعند يوم الفصل لا يعود للأسماء سلطان، ولا للأماني وزن؛ يظهر كل ظل على حقيقته، ويعلم الإنسان أن النجاة لم تكن في الاحتماء بما يبعده عن الله، بل في أن ينطلق إليه قبل أن يؤمر بالانطلاق إلى ما كان به يكذب.

الفصل السابع

هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ: حِينَ تَسْقُطُ بَلَاغَةُ الْمُكَذِّبِينَ

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

بعد صخب النار وهي ترمي بشرر كالقصر، وبعد حركة الشرر المتتابع كأنه جمالات صفر، يهبط على المشهد صمتٌ من نوع آخر، ليس صمت السكينة، بل صمت العجز، وليس خشوعًا اختاره القلب، بل انقطاعًا فُرض على اللسان بعدما انتهى زمن القول النافع: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾. بالأمس كان المكذبون يملكون الكلمات، يخاصمون بها الحق، ويلفون بها على الحجة، ويصنعون من الفصاحة ستارًا يحجب خواء موقفهم؛ أما اليوم فقد سقط سلطان اللغة التي أساؤوا استعمالها، وبقيت الحقيقة واقفةً لا تحتاج إلى شرح.

كان اللسان في الدنيا أداةً من أدوات الامتحان، يستطيع به الإنسان أن يقول صدقًا أو يختلق كذبًا، وأن يصلح بين قلبين أو يشعل حربًا، وأن يذكر الله أو يروّج البهتان، وأن يعتذر وهو قادر على الإصلاح أو يكابر حتى يتراكم الخراب. وقد يبدو الكلام في الدنيا أقوى من الواقع؛ إذ يستطيع صاحب البلاغة المضللة أن يلبس الباطل ثوب الحق، وأن يحوّل الضحية متهمًا والمعتدي بطلًا، وأن يجعل التكرار بديلًا من البرهان. لكن يوم الفصل لا يُحكم بجمال العبارة، ولا بارتفاع الصوت، ولا بكثرة الأنصار؛ هناك تعود الكلمة إلى وزنها الأخلاقي، ويسقط عنها الزخرف الذي خدع السامعين.

﴿هَذَا يَوْمُ﴾؛ اسم الإشارة يقرب المشهد حتى كأنه حاضر يُشار إليه، لا مستقبل بعيد يمكن للنفس أن تؤجله في خيالها. إن من أخطر ألاعيب التسويف أن يعترف الإنسان بالحقيقة ثم يضعها في مكان سحيق من الزمن؛ يقول: سأتوب، وسأصلح، وسأرد الحق، وسأعتذر، لكنه يتعامل مع الغد كأنه مخزن لا ينفد. فتأتي السورة بلفظ «هذا» لتكسر المسافة النفسية: اليوم الذي تراه بعيدًا سيصير حاضرًا أقرب إليك من كل ما كان يشغلك عنه، وستقف فيه كما تقف الآن في يومك هذا، غير أن الفارق بين اليومين أن هذا الذي تعيشه يقبل التدارك، وذاك لا يقبل إلا الحساب.

وعدم النطق في هذه الآية لا يتعارض مع ما ورد في مواضع أخرى من القرآن من كلام أهل القيامة وخصوماتهم واعتذاراتهم وتساؤلهم؛ فاليوم الآخر مواقف ومواطن، ينطقون في بعضها، ويُختم على أفواههم في بعضها، أو لا ينطقون بكلام ينفعهم ولا يملكون حجةً يُعتد بها. إنه يوم طويل متعدد المشاهد، ولا تُختزل أحواله في لحظة واحدة. وفي هذا الموطن الذي تعرضه السورة يقفون وقد انقطعت حجتهم، وصار الصمت أصدق تعبير عن الإفلاس الذي حاولت الكلمات طويلًا أن تخفيه.

إن الصمت هناك ليس نقصًا في إمكان التعبير فحسب، بل ظهور للحقيقة التي لم يعد لها جواب. فما الذي يمكن أن يقوله من أنذره الله فكذب، وأراه آياته فأعرض، وأمهله فاغتر، وستره فتمادى، وفتح له باب التوبة فأصر على إدارة ظهره؟ أي عبارة تستطيع أن تقف بينه وبين سجل عمره؟ إن بعض الحقائق أكبر من كل دفاع، وبعض الذنوب إذا اجتمعت عليها الشهادة سقطت أمامها قدرة اللسان على المناورة. ولذلك قد يكون الصمت في المحكمة الدنيوية قرارًا تكتيكيًا، أما في محكمة الآخرة فهو انكشاف كامل للعجز.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ لم يُغلق باب الاعتذار عن ظلم، فقد كان مفتوحًا طوال العمر، وإنما أُغلق بعد أن انتهى زمن الاعتذار الذي يتبعه إصلاح. كان يستطيع الإنسان في الدنيا أن ينكسر عند باب من ظلمه، ويقول: أخطأت، وأن يرد حقه، ويستغفر ربه؛ وكان الاعتراف يومئذ رفعة لا مذلة، لأنه انتصار على كبر النفس. لكنه آثر أن يحمي صورته على أن يصلح سريرته، وخشي سقوط مكانته في عين الناس أكثر مما خشي سقوطه من عين نفسه، حتى جاء يوم يرغب فيه أن يعتذر فلا يؤذن له.

وما أضيق المسافة بين اعتذار ينجّي واعتذار لا يُسمع: إنها مقدار العمر المتبقي. كلمة واحدة قد يعجز الكبر عن قولها اليوم، ثم يتمنى صاحبها غدًا لو اشترى بها نجاته بكل ما ملك. وليس الاعتذار الحقيقي سلسلة ألفاظ منمقة تُقال لتهدئة الضحية مع الاحتفاظ بسبب الإساءة، بل هو اعتراف لا يراوغ، وندم لا يبرر، وردّ لما يمكن رده، وعزم على ألا يعود. أما الاعتذار الذي يجعل الإنسان نفسه ضحية خطئه، أو يحمّل المجروح مسؤولية الجرح، فشكل آخر من أشكال المكابرة، وإن تلطف لسانه.

وتكشف الآية قيمة الإذن الإلهي التي يغفل عنها الإنسان؛ حتى الكلام الذي يعدّه أبسط حقوقه لا يملكه ملكًا مطلقًا، وإنما ينطق لأن الله أذن لهذا اللسان أن يتحرك ولهذه المعاني أن تنتظم. وفي الدنيا يفيض الناس بالكلام حتى يُخيّل إليهم أن أصواتهم جزء لا يُنتزع من ذواتهم، لكن يومًا يأتي فلا يُؤذن لهم، فيعرفون أن النعمة التي بددوها في الكذب والغيبة والمراء كانت أمانة مؤقتة. من أدرك ذلك صان لسانه؛ لا لأنه يخشى آثار الكلمة في الدنيا وحدها، بل لأنه يعلم أن الكلمات تُكتب، وأن الصمت عن الباطل عبادة، وأن النطق بالحق شكر للنعمة.

كم من كلمة أفسدت قلبًا، وقطعت رحمًا، وحرّضت على بريء، وكسرت إنسانًا، ثم مضى قائلها كأن الهواء ابتلعها! لكن الهواء ليس دفتر الآخرة؛ ما يلفظه الإنسان من قول محفوظ، وإن خرج الصوت من سمع الناس. وقد تُمحى الكلمة بالتوبة والاعتذار والإصلاح، لكن الإصرار يحولها من ذبذبة انتهت إلى أثر ينتظر صاحبه. لهذا كان الصمت في موطن القيامة مناسبًا لمن جعل كلامه في الدنيا طريقًا للتمويه؛ فقد مُنح البيان ليتبين به الحق، فلما استعمله لإخفائه، انتهى إلى موقف لا بيان فيه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ تأتي اللازمة السادسة بعد إغلاق باب النطق والاعتذار. وويلهم هنا ليس في النار وحدها، بل في هذا العجز المرير عن إنتاج كلمة تنقذهم؛ في أن يستعيدوا داخل نفوسهم آلاف المرات التي كان يمكنهم فيها أن يعترفوا، ثم يروا أن الفرصة ذهبت. الحسرة بنتُ المعرفة المتأخرة؛ أن تعرف قيمة الشيء بعد فقده، وتعرف صواب الطريق بعدما تُغلق أبوابه، وتجد العبارة الصحيحة بعدما يصبح اللسان عاجزًا عن قولها.

إن المؤمن إذا قرأ هذه الآية لم يحتقر المخطئ الذي اعتذر، بل ربما رأى اعتذاره نجاة وشجاعة؛ لأن الاعتراف في الدنيا مهما كان مرًّا أهون من صمت الآخرة. ولا يفرح بانتصاره في خصومة إذا كان انتصاره قائمًا على كذبة، ولا يجعل القدرة على الجدل دليلًا على صحة موقفه؛ فكم من مهزوم في الكلام منتصر عند الله، وكم من غالب بالحجة الملفقة لا يملك يوم الفصل حرفًا. العبرة ليست بمن أسكت خصمه، بل بمن كان الحق شاهدًا له.

ثم يرتفع النداء مرة أخرى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾. لقد سمّته السورة من قبل يوم الفصل، وها هي تعلن حلول اليوم بعد أن كان موعدًا منتظرًا. ويتسع المشهد حتى يجمع المتأخرين بالأولين، فلا يبقى جيل في قبره، ولا أمة خلف حدود زمنها، ولا فرد

محجوبًا بنسيان التاريخ. كل الذين تعاقبوا على الأرض، واختلفت ألسنتهم وألوانهم وقوتهم، يقفون في ساحة واحدة، وقد سقط الامتياز الذي منحه الزمن لمن جاء بعد أو قبل.

إن الجمع بين الأولين والآخرين يكشف وهم التفرد الذي يلازم كل عصر. كل جيل يظن أن خبرته استثنائية، وأن قوته لم يسبق لها مثيل، وأن أسئلته تعفيه من حكم ما سبق؛ ثم يجمع الله الأجيال كلها، فيظهر التشابه العميق بين القلوب، مهما اختلفت الأدوات. فرعون القديم بجوار كل فرعون استعار منطقه، والمستضعفون الذين ثبتوا بجوار من حملوا أمانة الثبات بعدهم، والمكذبون الذين طلبوا آية بجوار الذين غمرتهم الآيات ثم طلبوا غيرها. عندئذ لا تكون الحداثة عذرًا، ولا القِدم حجة؛ فالميزان واحد، والفطرة واحدة، والرب واحد.

﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾؛ من كان يظن أنه يستطيع الإفلات بالابتعاد يُجمع، ومن احتمى بقبيلته يُفرد للحساب، ومن اختبأ داخل جمهور يردد الخطأ يجد أن كثرة المشاركين لا تخفف مسؤوليته. إن البشر في الدنيا يستطيعون توزيع الذنب حتى يضيع فاعله؛ يقول كل واحد: فعلت ما يفعله الجميع، أو نفذت ما أُمرت به، أو اتبعت ما وجدنا عليه الناس. لكن الجمع يوم القيامة لا يذيب الفرد في الكثرة، بل يحضره بهويته الكاملة وصحيفته الخاصة، فيقف مع الناس جميعًا ويحاسب وحده.

وفي الآية عدل يواسي من لم يجد في الدنيا مكانًا لشكواه؛ فالذين فرق بينهم الزمن سيُجمعون، ومن مات قبل أن يرى خصمه سيجتمع به أمام قاضٍ لا يموت، ومن طُمست قصته في سجلات البشر ستُستعاد أمام الخلائق. ليس النسيان البشري إسقاطًا للحق، ولا طول الزمن تقادمًا للجريمة في ميزان الله. قد تتعاقب القرون فوق دم مظلوم، لكن الزمن لا يغسله من علم الله؛ فالحقوق التي لم تجد طريقها إلى محاكم الأرض لها يوم اسمه يوم الفصل.

ثم يأتي التحدي الذي يسحق آخر بقايا الوهم: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾. لقد كان الكيد في الدنيا سلاح المكذبين؛ يخططون في الخفاء، ويجمعون الأدوات، ويستعملون المال والنفوذ والإشاعة، ويحسبون أن إحكام الحيلة يستطيع أن يغيّر ميزان الحقيقة. قد ينجح الكيد زمنًا، لأن الدنيا دار اختبار يسمح الله فيها للأسباب أن تعمل، وللباطل أن يأخذ مداه، وللإنسان أن يكشف اختياره. أما في يوم الفصل فقد انتهى فضاء المناورة، وجاء التحدي ساخرًا من عجزهم: إن بقي لكم شيء من كيدكم الذي اغتررتم به، فاستعملوه.

ليس هذا أمرًا حقيقيًا بإمكان الفعل، بل إظهارٌ لعجزهم الكامل؛ فأنّى لمخلوق مسحوق بين سلطان الله وعدله أن يكيد؟ وأين الأجهزة التي كان يختبئ وراءها؟ وأين الأتباع الذين كانوا ينفذون؟ وأين المال الذي فتح به أبوابًا وأغلق أخرى؟ وأين الكلمة التي زيّف بها الوعي؟ لقد جاء وحده إلا من عمله، وانفصلت الوسائل عن يده، وبقي الكيد شاهدًا عليه بعد أن كان يتوهمه حارسًا له.

إن الكيد قائم على وهمين: أن الحقيقة يمكن إلغاؤها بإخفائها، وأن الله لا يرى تفاصيل الخطة. قد ينجح الكائد في تضليل الناس، لكنه لا يغير الواقعة في علم الله، وقد يمحو الوثيقة لكنه لا يمحو الفعل من الكتاب، وقد يسكت الشاهد لكنه لا يسكت الجوارح. إن أقصى ما يبلغه الكيد أن يؤخر ظهور الحقيقة في الدنيا، أما أن يمنع ظهورها في يوم الفصل فذلك ما لا سبيل إليه.

ومن تأمل الآية أدرك أن الذكاء الأخلاقي ليس في أن تستطيع تنفيذ الحيلة، بل في أن ترفضها وإن قدرت عليها. فما قيمة عقل يكتشف الطريق إلى مكسب صغير ثم يعمى عن النهاية الكبرى؟ وما قيمة تدبير ينجح أمام البشر ويفشل أمام الله؟ إن بعض الناس يسمون

القدرة على الخداع ذكاءً، مع أنها قصر نظر؛ لأن الذكي حقًا يحسب النتيجة الأخيرة، ولا يعدّ نجاةً أن يفلت من عين مخلوق ثم يقع تحت علم الخالق.

والتحدي الإلهي للكائدين يملأ قلب المؤمن طمأنينةً لا سذاجة فيها؛ فهو لا ينكر قوة المؤامرة في الدنيا، ولا يستخف بما تحدثه من آلام، لكنه يراها داخل سلطان أكبر منها. قد يصل كيدهم إلى الجسد أو الرزق أو السمعة، لكنه لا يصل إلى إبطال وعد الله، ولا يستطيع أن يخرج صاحبه من ملكه. ولذلك يعمل المؤمن بحكمة، ويحذر، ويأخذ بالأسباب، ولا يمنح الكائدين في قلبه مقام القدرة المطلقة؛ فالخوف الطبيعي لا يتحول عنده إلى عبودية، والحذر لا يصير اعتقادًا بأن مفاتيح المصير في أيدي البشر.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، تأتي اللازمة السابعة عقب سقوط الحجة والكيد معًا. في المقطع الأول عجزوا عن الكلام الذي ينجيهم، وفي الثاني عجزوا عن الفعل الذي يدفع عنهم. أُغلق باب البيان، ثم سُلبت قوة التدبير؛ فلا اعتذار مقبول، ولا حيلة ممكنة. وهذا هو الإفلاس التام: أن يفقد الإنسان يوم حاجته كل الأدوات التي أنفق عمره في الاعتماد عليها.

والمكذبون لم يصلوا إلى ذلك العجز لأن الله حرمهم في الدنيا من وسائل النجاة؛ بل لأنهم استعملوا الوسائل في الاتجاه المضاد. أعطاهم لسانًا فجادلوا، وعقلًا فكروا، ومهلة فتوسعوا في الغفلة، وجماعة فتناصروا على الباطل؛ فلما جاء يوم الفصل انقلبت النعم التي أساؤوا استعمالها إلى شواهد إدانة. ولهذا فإن الشكر الحقيقي لأي قدرة أن توجَّه إلى الحق: شكر اللسان صدقه، وشكر العقل إخلاصه للحقيقة، وشكر النفوذ حماية الضعيف، وشكر القدرة العفو والعدل، وشكر الزمن أن يُملأ بما ينفع قبل انقضائه.

إن الآيات تضعنا أمام مقارنة لا مهرب منها: اليوم نستطيع أن ننطق، فماذا نقول؟ ونستطيع أن نعتذر، فلماذا نؤجل؟ ونستطيع أن نخطط، فلأي غاية نكيد؟ ونعيش بين الآخرين والأولين، فأي فريق نختار أن نشبه؟ إن كل نعمة حاضرة تحمل سؤالها، وكل قدرة مؤقتة ستُسأل عن وجهتها. ومن الحكمة أن يجيب الإنسان عنها بعمله الآن، قبل أن يأتي يوم يكون الصمت فيه هو الجواب الوحيد.

وهكذا ينتهي المشهد وقد جُرّد المكذب من لسانه وحيلته، لا ظلمًا، بل بعد أن بدّد فرصة النطق الصادق والعمل الصالح. وفي قلب هذا الوعيد دعوة رقيقة لمن لا يزال في زمن الإمكان: تكلّم الآن بكلمة الحق، واعتذر الآن ممن ظلمت، وأبطل كيدك قبل أن ينقلب عليك، واصطلح مع الله قبل الجمع، ولا تجعل فصاحتك ستارًا يحجبك عن الحقيقة؛ فما أجمل أن يصمت الإنسان اليوم عن الباطل باختياره، لكي يؤذن له غدًا بالكلام الذي يرضي الله، وما أنجى أن يعترف الآن بضعفه، قبل أن يقف في يوم لا تنفع فيه بلاغة ولا اعتذار ولا كيد.

الفصل الثامن

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ: حِينَ تَنْتَهِي رِحْلَةُ الْخَوْفِ إِلَى الْأَمَانِ

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

بعد أن ضاق المشهد بالمكذبين حتى لم يبق لهم لسان يعتذر، ولا كيد يدفع، ولا ظل يحمي من اللهب، تفتح السورة نافذةً على الضفة الأخرى من المصير، فإذا الخوف أمان، والحرمان وفرة، والحرارة ظلال، والجفاف عيون، والأمر الذي كان يسوق أهل التكذيب إلى النار يتحول هنا إلى إذن مملوء بالتكريم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾. إن الانتقال بين المشهدين ليس انتقالًا زخرفيًا يراد به تنويع الصور، بل هو كشف لجدية الاختيار الإنساني؛ فالطريقان يبدآن من الدنيا نفسها، لكن كل خطوة أخلاقية تدفع صاحبها نحو إحدى النهايتين، حتى إذا جاء يوم الفصل انفصل ما كان متداخلًا، وظهر أن الذين عاشوا تحت سقف واحد لم يكونوا يسيرون إلى مصير واحد.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾، كلمة واحدة تختصر هوية الناجين، فلا تنسبهم السورة إلى جنس ولا طبقة ولا جماعة ولا لقب، وإنما إلى صفة قامت في القلوب وصدقتها الأعمال: التقوى. والتقوى ليست خوفًا مرتجفًا يشل الحياة، ولا عزلةً باردة عن العالم، ولا مظهرًا دينيًا يستطيع الإنسان أن يرتديه أمام الناس ثم يخلعه في الخلوات؛ إنها يقظة داخلية تجعل العبد يشعر برقابة الله، فيضع بين نفسه وبين سخطه وقاية من طاعته، ويستحضر الآخرة في لحظة الاختيار، فلا يسمح للحاضر العاجل أن يبتلع مصيره البعيد.

والمتقي ليس إنسانًا لم يعرف الضعف، بل إنسان عرف طريق العودة كلما ضعف؛ فقد يزل، لكنه لا يحول الزلة إلى مذهب يدافع عنه، وقد تعصف به الشهوة، لكنه لا يسمي استسلامه حرية، وقد يغفل، لكنه حين يُذكّر يتذكر. الفرق بينه وبين المكذب ليس أن أحدهما من طبيعة ملائكية والآخر من طبيعة بشرية، فكلاهما بشر، وإنما الفرق أن المتقي أبقى نافذةً في قلبه يدخل منها نور المراجعة، بينما أغلق المكذب أبوابه ثم أقنع نفسه أن الظلام هو الحقيقة.

والتقوى سر لا يحيط به إلا الله؛ فقد تتشابه الأعمال في ظاهرها، ويختلف ما وراءها اختلافًا بعيدًا. يصمت اثنان، فيكون صمت أحدهما حكمةً وصمت الآخر خذلانًا للحق؛ وينفق اثنان، فيطلب أحدهما وجه الله ويطلب الآخر صورته في أعين الناس؛ ويتكلم اثنان بعبارة دينية واحدة، فيخرج الكلام من قلب خاشع عند أحدهما، ومن رغبة في الهيمنة عند الآخر. يوم الفصل يفصل بين هذه الطبقات الخفية، ولذلك لم يقل: إن أصحاب الصور الصالحة في ظلال وعيون، بل قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن الله ينظر إلى الحقائق التي عاشت وراء الصور.

﴿فِي ظِلَالٍ﴾؛ جاءت الظلال هنا جمعًا، ممتدةً مريحة، في مقابلة ذلك الظل المفرد ذي الشعب الثلاث الذي لا يظل ولا يغني من اللهب. ما أشد الفرق بين ظلين يتشابهان في الاسم ويفترقان في الحقيقة: ظلٌ من دخان النار، وظلال من رحمة الله؛ ذاك يُساق إليه المكذب قسرًا، وهذه يُدخلها المتقي تكريمًا؛ ذاك يحاصره اللهب، وهذه يحيط بها الأمان. وهكذا تعلمنا السورة أن الاشتراك في الأسماء لا يعني الاشتراك في الحقائق، وأن الإنسان لا ينبغي أن يخدع بظاهر الراحة قبل أن يسأل عن مصدرها ونهايتها.

وقد عاش المتقون في الدنيا زمنًا طويلًا تحت شمس الابتلاء، اكتووا بحرارة الشهوة وهم يقاومونها، وبحرارة السخرية حين ثبتوا على الحق، وبحرارة الظلم حين رفضوا أن يشتروا السلامة بالصمت، وبحرارة الفقد حين صبروا ولم يسيئوا الظن بربهم. كانوا يستطيعون أن يبحثوا عن ظل عاجل في تنازل يريحهم، أو كذبة تحميهم، أو موالاة للباطل تفتح لهم الأبواب، لكنهم علموا أن بعض الظلال دخان، فاختاروا الوقوف في حر الطريق حتى يبلغوا ظل الله.

إن كل مشقة تحملها المتقي لله تتحول في الآخرة إلى راحة، وكل خوف من الله يثمر أمانًا، وكل دمعة كتمها الصابر بعيدًا عن أعين الناس تصير في ميزان الرحمة شيئًا لا يضيع. ليس لأن الألم مطلوب لذاته، فالله لا يحب لعباده العنت، وإنما لأن الوفاء للحق قد يكلّف في عالم اختلطت فيه المقاييس. وحين يدفع المؤمن كلفة الاستقامة لا يشتري العذاب، بل يحمي قلبه من نار أعمق، ويدخر عند الله ظلًا لا تزول برودته.

﴿وَعُيُونٍ﴾؛ إذا كان الظل يرد الحر، فإن العيون تروي الظمأ، وباجتماعهما يكتمل الإحساس بالسكينة: لا لهب من الخارج، ولا عطش في الداخل. والعيون جارية لا يحتاج صاحبها إلى حفر ولا حمل ولا خوف من نضوب؛ فالجنة ليست مكانًا يحصل فيه الإنسان على حاجاته بعد تعب، بل دار زال عنها معنى الكدح الذي طبع الدنيا. هناك لا يركض المرء وراء الرزق، ولا يخشى فقده بعد حصوله، ولا يكدر لذة الماء خوف التلوث أو الانقطاع؛ لأن النعمة في جوار الكريم لا تأتي مهددةً بالزوال.

وقد سبق أن ذكّرت السورة بنعمة الماء في الدنيا: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾، ثم ها هي تذكر العيون في الجنة؛ فكأن الماء يرافق المؤمن في رحلته من نعمة الاختبار إلى نعمة الجزاء. في

الدنيا يشرب فيشكر، وفي الآخرة يشرب مكافأةً على شكره؛ في الدنيا يحتاج إلى الماء ليبقى زمنًا، وفي الجنة يتنعم به في بقاء لا موت بعده. والنعمة الواحدة تتغير دلالتها بتغير الدار: هنا أمانة تُسأل عنها، وهناك كرامة لا حساب بعدها.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لم يقل: وفواكه موجودة فحسب، بل ربطها باشتهاء أهل الجنة، فاجتمعت وفرة العطاء وموافقته للرغبة. كم من أشياء يجدها الإنسان في الدنيا ولا يريدها، وكم من أشياء يريدها ولا يجدها، وكم من مرغوب يناله بعد أن يفتر شوقه إليه، أو يناله ناقصًا، أو يكتشف أن لذته أقل من الصورة التي صنعها الخيال. أما الجنة فهي دار التوافق الكامل بين العطاء والرغبة المطهرة؛ لا مسافة بين الشهوة المشروعة ووجود ما يرضيها، ولا مرارة نقص تفسد حلاوة النعمة.

والفاكهة في أصل معناها مما يتفكه به الإنسان ويتلذذ، فهي ليست مجرد سد للجوع، بل لون من ألوان الإكرام والجمال. وهذا يكشف أن نعيم الجنة لا يقتصر على إزالة الألم والحاجة، بل يتجاوز ذلك إلى الإمتاع والبهجة؛ فالله الذي خلق في الإنسان القدرة على تذوق الجمال واللذة لم يجعل كل ذلك عبثًا، وإنما طهره في دار الكمال من شوائب الفناء والندم والمرض. لذات الدنيا كثيرًا ما تأتي مختلطة: طعام يتبعه أذى، وصحة تتربص بها علة، واجتماع يخيم عليه الفراق؛ أما هناك فالنعمة صافية من ضدها.

وقوله: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يحمل تكريمًا لشخص الإنسان، فكأن رغبته نفسها معتبرة في ضيافة الله. في الدنيا تعلّم المتقي أن يهذب شهوته، وأن يمنعها مما حرّم الله، وأن لا يجعل كل ما يريد حقًا واجب التحصيل؛ فلما أحسن قيادة رغبته هنا، أكرمه الله هناك بدار لا تتعارض فيها

رغبته مع رضاه. إن الجنة ليست إلغاءً للإنسانية، بل كمالها بعد تطهيرها؛ يبقى فيها الحب والتذوق والاشتهاء، لكن من غير انحراف ولا قلق ولا تزاحم ولا خطيئة.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾؛ ما ألطف هذا الخطاب بعد قوله للمكذبين: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. هناك أمر يحمل الإهانة والسوق إلى العذاب، وهنا أمر يحمل الإذن والتشريف والرضا. في الدنيا كان الأمر بالطاعة تكليفًا يحتاج إلى مجاهدة، وفي الجنة يصبح الأمر بالتمتع كرامة؛ كأن الذين قالوا في الدنيا: سمعنا وأطعنا، يسمعون في الآخرة ما تشتهيه نفوسهم: كلوا واشربوا بلا خوف ولا حساب.

و«هنيئًا» كلمة تمسح عن النعمة كل ما يعكرها؛ الهنيء ما لا يلحق صاحبه فيه أذى ولا تبعة ولا منغص. فكم من طعام في الدنيا لم يهنأ به صاحبه لأن خلفه مرضًا، أو أمامه فقرًا، أو حوله جائعًا يؤلمه، وكم من شربة كدرها الخوف، وكم من فرح نقصه شعور بأنه عابر. أما نعيم الآخرة فهنيء لأنه خالٍ من المنغص في لحظته ومن الخوف في مستقبله؛ لا يمرض الجسد منه، ولا يزول عن صاحبه، ولا يوقظ في القلب حسرة.

إن الإنسان لا ينال تمام الهناء في الدنيا لأن الدنيا بُنيت على الامتزاج؛ فيها الضحكة وبجوارها احتمال الدمع، وفيها اللقاء يحمل منذ بدايته إمكانية الفراق، وفيها الشباب يتحرك نحو الشيخوخة، والامتلاك نحو الترك، والصحة نحو الضعف. ليس هذا دعوة إلى رفض أفراح الدنيا، بل إلى وضعها في مقامها؛ نفرح بها شاكرين، من غير أن نطالبها بما لا تستطيع من الخلود. الذي يطلب من الدنيا نعيمًا بلا نقص يظلمها ويعذب نفسه؛ فقد خُلقت ممرًا، أما الهنيء الكامل فموعده هناك.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ربطت الآية النعيم بالعمل، لا لأن العمل ثمن يساوي الجنة استقلالًا عن رحمة الله، فقد ثبت أن أحدًا لا يدخل الجنة بمجرد عمله إلا أن يتغمده الله برحمته، ولكن الأعمال أسباب لنيل الرحمة، وشواهد صدق الإيمان، ومواضع لفضل الله في الجزاء. لقد لم يقل: بما كنتم تمتنون، أو بما كنتم تدّعون، وإنما بما كنتم تعملون؛ لأن الأماني لا تصنع المصير إذا خالفتها الخطوات، والدعوى التي لا تصدقها الحياة ورقة لا وزن لها.

والعمل هنا جاء مطلقًا ليشمل ما ظهر وما خفي، وما عظم في أعين الناس وما صغر، ما حفظته الذاكرة وما نسيه صاحبه. ربما دخل في «ما كنتم تعملون» كأس ماء قدمها إنسان لعطشان ولم يذكرها بعدها، أو كلمة جبرت قلبًا، أو نظرة غضّها خوفًا من الله، أو غضبًا كظمه، أو أذى قدر عليه فعفا، أو ركعتين في ظلمة لم يعلم بهما أحد. الله لا يحتاج إلى ضخامة المشهد ليعرف قيمة العمل؛ فهو يرى ذرة الصدق في أصغر فعل، وقد يبارك في عمل مستور ما لا يبارك في مشروع ضخم امتلأ صاحبه بنفسه.

وكذلك فإن التقوى ليست حالة وجدانية بلا أثر، لا يكفي أن يشعر الإنسان برقّة في قلبه ثم تظل معاملاته قاسية، أو يتذوق جمال الذكر ثم يأكل حقوق الناس، أو يبكي عند آية ثم لا يغير ظلمًا يستطيع تغييره. الإيمان الذي لا يسير إلى اليد واللسان والموقف يبقى معرضًا لأن يتحول إلى إعجاب بالنفس. ولذلك جاء الجزاء ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ليظل القلب والعمل متصلين: القلب يمد العمل بالإخلاص، والعمل يشهد أن القلب لم يكن أسير أمانيه.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، انتقلت السورة من وصف «المتقين» إلى وصف «المحسنين»، لتكشف أن التقوى ليست مجرد امتناع عن الشر، بل ترتقي إلى صناعة الخير وإتقانه. المتقي يحجز نفسه عما يسخط الله، والمحسن يملأ الفراغ بما يحبه الله؛ يتجاوز سلامته

الخاصة إلى نفع غيره، ويتجاوز أداء الواجب في صورته الدنيا إلى تجميله بالإخلاص والرحمة. وقد جمع هؤلاء بين التقوى والإحسان؛ راقبوا الله حتى تركوا الحرام، واستشعروا قربه حتى أحسنوا العمل.

والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ فإذا دخل هذا المعنى إلى الحياة لم يعد العمل مجرد حركة تؤدى، بل حضوراً بين يدي الله. يحسن الإنسان صلاته لأنه واقف لربه، ويحسن كلمته لأن الله يسمعها، ويحسن إلى الضعيف لأنه يعلم أن القوة عارية، ويحسن حين لا يراه الناس لأن عين الله تكفيه. إن أخلاق الإحسان تتحرر من مزاج الجمهور؛ لا تزيد حين يأتي المدح، ولا تموت حين يتأخر الاعتراف.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾؛ سنة في الجزاء تقابل سنة الإهلاك التي سبقت: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾. هناك قانون للعدل في هلاك الإجرام، وهنا قانون للفضل في جزاء الإحسان. السورة لا تبني رؤيتها على الخوف وحده؛ إنها توازن النفس بين رهبة العدل وسعة الكرم، حتى لا تتهاون اعتماداً على الرحمة، ولا تيأس تحت ثقل الوعيد. رب العالمين الذي لا يضيع مظلمةً لا يضيع إحساناً، والذي أحصى خطايا المجرمين أحصى كذلك خطوات المتقين في الطرق التي لم يصفق لهم فيها أحد.

ومن أعظم حاجات المحسن أن يوقن بأن إحسانه محفوظ، ولا سيما حين يقابله الناس بالجحود. قد يعطي فلا يُشكر، ويصدق فيُساء الظن به، ويصلح ما أفسده غيره ثم يُنسب الفضل إلى سواه، ويثبت في موضع لا يعرف أحد مقدار كلفته النفسية؛ فإذا قاس عمله بردود البشر خارت عزيمته. أما إذا علم أن الله يقول: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، تحرر من فقر الانتظار، وصار إحسانه صلةً بالله قبل أن يكون صفقة مع الناس.

ثم تعود اللازمة الثامنة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. وقد جاءت هذه المرة بعد وصف نعيم المتقين، فتتخذ معنىً يزيد على العذاب المباشر: ويل لهم مما فاتهم. فالحسرة ليست فيما دخلوا فيه من نار فحسب، بل فيما حُرموا منه من ظلال وعيون وفواكه ورضوان. كانوا يستطيعون أن يكونوا بين هؤلاء؛ جاءهم الذكر نفسه، وعاشوا زمن العمل نفسه، وفُتح لهم باب التوبة نفسه، لكنهم باعوا النعيم الدائم بلذة عابرة، ثم رأوا يوم الفصل مقدار الخسارة.

إن فقد النعمة بعد رؤيتها أشد ألمًا من الجهل بها؛ ولعل من عذاب المكذب أن يدرك ما أضاع، وأن يرى المتقين في أمنهم ويتذكر أنه سخر منهم يومًا لأنهم ضيّقوا على شهواتهم، فإذا ما ظنه تضييقًا كان طريق السعة، وما ظنه حرية كان طريق الأسر. هناك تنقلب أحكام الدنيا: الذي حرم نفسه لله لم يكن محرومًا، بل كان يدخر شهوته لدار لا يعقبها ندم؛ والذي أخذ كل ما أراد لم يكن حرًا، بل كان يستنزف رصيده الأبدي في متاع قصير.

وهذه الآيات تمنح المؤمن ميزانًا يعينه على الصبر؛ حين يشتد عليه طريق التقوى لا ينظر إلى المشقة وحدها، بل يرى خلفها الظلال والعيون، وحين يترك حرامًا تشتهيه نفسه لا يظن أنه فقد اللذة، بل نقلها من وقت مهدد إلى خلود آمن، وحين يحسن ولا يُجازى في الدنيا يتذكر أن الجزاء الكامل لم يوضع هنا أصلًا. اليقين بالجنة لا يعزل المؤمن عن الحياة، بل يمنحه طاقة على إصلاحها من غير أن يبيع مبادئه ليحصل على مكافأتها العاجلة.

ومع ذلك، لا ينبغي أن تُختزل التقوى في حساب تجاري جاف: أترك هذا لأحصل على ذاك؛ فذروة نعيم المتقي ليست الفواكه والعيون وحدها، على عظمها، بل رضوان الله الذي دل عليه هذا الخطاب الكريم. أن يسمع العبد من ربه إذن التكريم، وأن يعلم أن عمله قُبل، وأن زمن الخوف قد انتهى، وأنه في جوار لا طرد بعده؛ تلك نعمة يتضاءل أمامها كل

وصف مادي. الجنة ليست أشياء جميلة فقط، بل أمان العلاقة مع الله بعد رحلة طويلة من الرجاء والخشية.

هكذا يستقر المشهد في القلب كالواحة بعد طول العاصفة: ظلال تحمي، وعيون تجري، وفواكه توافق الشهوة، وخطاب يملأ النعمة هناءً، وإعلان إلهي بأن الإحسان لا يضيع. وما بين هذه الواحة والظل ذي الشعب الثلاث تقف التقوى فاصلةً لا يراها الناس كاملة، لكن الله يراها. قد تكون التقوى قرارًا صغيرًا في لحظة لا يعلم بها أحد، غير أن القرارات الصغيرة تجتمع حتى تصنع المصير، وكما تجتمع قطرات الماء فتصير عيناً، تجتمع طاعات العبد وعوداته ونداماته تحت رحمة الله، حتى يقال له في النهاية: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الفصل التاسع

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا: الْمَتَاعُ الَّذِي يَأْكُلُ مِنْ عُمْرِ صَاحِبِهِ

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

ما أقسى المسافة بين أمرين اتحد لفظهما واختلف معناهما: قيل للمتقين قبل قليل: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم قيل للمجرمين: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾. هناك أمر تكريم في دار البقاء، وهنا أمر تهديد في دار الفناء، هناك طعام لا يعقبه أذى، وشراب لا يقطعه ظمأ، وهناء لا يخالطه خوف، وهنا متاع قصير يحمل في داخله ساعة انتهائه. الكلمة واحدة: «كلوا»، لكن ما يحيط بها يكشف اختلاف المصير؛ فليست قيمة النعمة في صورتها وحدها، بل في مصدرها، وطريقة تلقيها، والأثر الذي تتركه، والعاقبة التي تقود إليها.

إن القرآن لا يحرّم على الإنسان أن يأكل أو يتمتع بطيبات الحياة، فقد خلق الله الزينة والرزق وأذن لعباده في الطيب من متاعها، ولكن الخطر يبدأ حين يتحول المتاع من نعمة تُشكر إلى غاية تُعبد، ومن وسيلة تعين على الطريق إلى طريق يبتلع المسافر، ومن نصيب محدود يأخذه الإنسان بميزان إلى هوية كاملة لا يعرف نفسه خارجها. ليس الذم متعلقًا بمجرد الأكل، بل بالأكل الذي انقطع عن الشكر، وبالمتعة التي تحررت من المسؤولية، وبالحياة التي اختُزلت في إرضاء الجسد حتى نسي صاحبها أن فيه روحًا ستقف بين يدي الله.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾، صيغة الأمر هنا ليست إباحة راضية، وإنما إمهال يحمل في نبرته الوعيد، كقوله سبحانه في مواضع أخرى: اعملوا ما شئتم، أي إنكم لن تفلتوا من نتيجة أعمالكم. فكأن السورة تقول للمجرمين: امضوا في هذا الذي اخترتموه، واستوفوا ما تستطيعون من لذته القصيرة، فإن الطريق لا ينتهي عند المائدة، ولا يقف عند انقضاء الشهوة؛ وراء اللقمة حساب، ووراء اللذة سؤال، ووراء العمر يوم ينكشف فيه ما كان المتاع يخفيه من فقر داخلي ومصير ثقيل.

وما أشد غرور الإنسان حين يفهم الإمهال على أنه رضا؛ يأكل، ويربح، ويتمتع، وتتسع له الدنيا، فلا يرى العقوبة تنزل عاجلة، فيتوهم أن مساره صحيح، وأن وفرة النعمة حجة على براءته. لكنه ينسى أن الدنيا ليست موضع الجزاء الكامل، وأن العطاء فيها لا يدل وحده على المحبة، كما أن المنع لا يدل وحده على السخط. قد يُعطى المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لأن الدنيا دار ابتلاء، وقد يُحرم الصالح لحكمة، ويُمد المجرم في النعمة استدراجًا أو إقامةً للحجة. الميزان ليس: ماذا أُعطيت؟ بل: ماذا أحدث فيك ما أُعطيت؟ هل قرّبك أم أبعدك؟ هل رقّق قلبك أم زادك استعلاء؟ هل مرّ عبر يدك إلى المحتاج أم تحول إلى جدار بينك وبين الناس؟

ثم تأتي الكلمة التي تهدم قصر المتاع كله: ﴿قَلِيلًا﴾. قليل في مدته مهما امتد، وقليل في صفائه مهما لمع، وقليل في قدره إذا قورن بما عند الله. فلو عاش الإنسان قرنًا كاملًا في لذاته، ماذا يبقى من القرن حين ينتهي؟ إن الزمن المعيش يبدو طويلًا في أوله، لكنه بعد انقضائه ينكمش في الذاكرة حتى يصير كأنه ساعات، ثم يأتي الموت فيساوي بين عمر قصير وعمر طويل من جهة انقطاع القدرة على الزيادة. كل ما مضى صار قليلًا، ولو كان حين انتظاره بعيدًا.

و«قليلًا» ليست وصفًا عدديًا فحسب، بل حكم على حقيقة الدنيا كلها إذا انفصلت عن الآخرة. فالدنيا مهما اتسعت محدودة، وكل محدود قليل أمام ما لا ينفد. يستطيع الإنسان أن يراكم المال حتى تعجز يده عن عدّه، لكنه يتركه كله في لحظة؛ وأن يتذوق ألوان المتعة، لكن جسده يفقد القدرة عليها مع الزمن؛ وأن يملأ اسمه المساحات، لكن الأجيال القادمة تمحو من الذاكرة أكثر مما تحفظ. القليل ليس ما كان نادرًا فقط، بل كل ما ينتهي، لأن النهاية تأكل من قيمة المتاع بقدر ما اقتربت.

إن الطفل يظن يومه طويلًا، والشاب يرى العمر ممدودًا بلا حافة، ثم يلتفت الشيخ فيجد العقود قد عبرت كأنها حلم. وما العمر إلا شيء يتناقص في اللحظة نفسها التي يظن فيها صاحبه أنه يزداد؛ يزداد عدد السنين الماضية، لكن الرصيد الباقي يقل. كل يوم جديد من جهة هو زيادة في التجربة، ومن جهة أخرى نقص من المهلة. ومن لم يرَ الوجهين خدعه التقويم؛ احتفل بمرور عام ولم يسأل: ما الذي اقترب بانقضائه؟

وليس المقصود أن يعيش المؤمن مطاردًا بفكرة النهاية حتى يعجز عن تذوق الحلال؛ بل أن تظل النهاية ميزانًا يحفظ اللذة من أن تتحول إلى عبودية. المؤمن يأكل ويشكر، ويضحك من غير فحش، ويحب الجمال من غير إسراف، ويستريح ليقوى، ويأنس بأهله، ويتمتع بما أباح الله، لكن قلبه لا يركع للمتاع. يكون الشيء في يده ولا يصبح هو في يد الشيء؛ فإذا حضر شكر، وإذا غاب صبر، وإذا تعارض مع الحق تركه من غير أن تنهار هويته.

أما المجرم فيجعل المتاع معيار الصواب؛ ما زاد لذته سمّاه خيرًا، وما حدّ شهوته سمّاه قيدًا، وما فتح له الربح بره ولو كان ظلمًا، وما طالبه بالتضحية رفضه ولو كان حقًا. هكذا تتحول الرغبة من جزء في الإنسان إلى إله يحكمه، ويصبح العقل موظفًا لتبرير ما تشتهي النفس،

بدل أن يكون بصيرةً تضبطها. وليس أخطر على الإنسان من عقل ذكي في خدمة شهوة عمياء، لأنه يمنح الانحراف لغةً مقنعة، ويجعل صاحبه قادرًا على خداع نفسه زمنًا أطول.

﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾، لم يقل: لأنكم تأكلون وتتمتعون، وإنما وصف حقيقتهم الأخلاقية التي جعلت متاعهم جزءًا من طريق الإجرام. فالأكل في ذاته ليس جريمة، ولكن قد يصير الطعام شاهدًا على الجريمة حين يأتي من مال مسروق، أو من جوع الضعفاء، أو من استغلال لا يرحم، أو حين يأكل صاحبه شبعان بجوار حق يعرف أنه منعه. والمتعة ليست إجرامًا في ذاتها، لكنها تكون كذلك حين تُبنى على انتهاك حرمة، أو إذلال إنسان، أو تضييع أمانة، أو حين تصير غطاءً يمنع القلب من سماع أنين من ظلمه.

إن كثيرًا من وجوه الإجرام تختبئ وراء حياة تبدو ناعمة؛ قد يجلس المجرم إلى مائدة فاخرة، لكن في كل لقمة منها حق عامل حُرم أجره، أو مال عام نُهب، أو ضعيف استُنزف. يلمع ظاهر المتاع حتى لا يرى صاحبه السلسلة الأخلاقية التي أوصلته إليه. غير أن يوم الفصل يعيد وصل الأشياء بأسبابها؛ فلا يرى الإنسان الطعام طعامًا فقط، بل يرى الطريق الذي جاء منه، والحقوق التي عُلقت به، والقلوب التي انكسرت لكي يصل إليه.

ولهذا فإن التقوى تدخل إلى تفاصيل الاستهلاك كما تدخل إلى الصلاة؛ تسأل: من أين جاء المال؟ وفي أي شيء أُنفق؟ وهل استُوفي الحق؟ وهل كان في المتاع إسراف أو مباهاة أو أذى؟ إن الدين لا يقيم جدارًا بين المحراب والسوق، ولا يسمح للإنسان أن يكون خاشعًا في عبادته مفترسًا في تجارته. من لم يهذب كسبه وإنفاقه لم تبلغ التقوى كل مساحات حياته، ولو رق صوته في التلاوة.

والآية تعرّي حضارة المتاع حين تصبح غايتها إنتاج الرغبات بلا سقف، ثم إقناع الإنسان بأن قيمته مقدار ما يستهلك. كلما امتلك شيئًا خُلقت له رغبة جديدة، وكلما لحق بصورة السعادة ابتعدت أمامه، فيدور في حلقة من الشراء والملل والبحث عن بديل. يظن أنه يتمتع بالأشياء، بينما الأشياء تستهلك وقته وقلقه وطاقته؛ يملكها في الظاهر، لكنها تملك انتباهه، وتحدد منزلته في عينه، وتجعله يخشى فقدها كأن فقدها فقد لذاته.

إن متاعًا يحتاج إلى إفقار آخرين، وإرهاق الروح، وتبديد العمر، وإفساد الأرض، ثم ينتهي بالموت—مهما بدا واسعًا—متاع قليل. والقلة هنا ليست في عدد مقتنياته، بل في ضآلة المعنى الذي عاد به على صاحبه. قد تكون حياة الفقير ممتلئة إذا عمرها بالإيمان والمحبة والكرامة، وقد تكون خزائن الغني فراغًا متراكمًا إذا لم يعرف لماذا يجمع ولا لمن يعطي. الوفرة الحقيقية ليست فيما يحيط بالإنسان، بل فيما يسكنه؛ فقد يعيش بين أشياء كثيرة بقلب جائع، ويعيش آخر بالقليل وروحه مستغنية بالله.

وفي المقابلة مع نعيم المتقين، ندرك أن القضية ليست أن الله حرم المجرمين من المتعة وأعطاها للمؤمنين فحسب، بل أن المتقين تعلموا في الدنيا كيف يضعون اللذة في موضعها، فأصبحت في الآخرة خالصةً لهم. ضبطوا أنفسهم حين كان الحرام قريبًا، وصبروا حين كان الامتناع مؤلمًا، ولم يبيعوا ضمائرهم ليأخذوا نصيبًا أكبر من «القليل»، فقيل لهم هناك: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾. أما الذين جعلوا اللذة غايتهم، فقد أخذوا نصيبهم العاجل على عجلته وكدره، ثم وجدوا أن المائدة رُفعت وأن الحساب بقي.

لا يعني ذلك أن كل من اتسعت عليه الدنيا قد استوفى حسناته، ولا أن كل صاحب متاع مجرم؛ فهذا إطلاق يناقض عدل الوحي. إنما المذموم هو الاستغراق الذي يصحبه الإجرام

والتكذيب والغفلة. وقد كان في عباد الله من أوتي المال فشكر، واتسع رزقه فوسع على غيره، وجعل نعمته طريقًا إلى الله. الفرق لا يصنعه حجم ما في اليد وحده، بل موضعه من القلب ووجهة استعماله؛ قد يحمل الغني ماله ولا يحمله المال، وقد يملك الفقير شيئًا يسيرًا فيستعبده الطمع فيه.

إن القرآن لا يحاكم الإنسان على أنه وجد اللذة، بل على ما فعل من أجلها، وما نسي بسببها، وما صار إليه قلبه معها. هل شكر المنعم أم وقف عند النعمة؟ هل حفظ الحدود أم جعل الرغبة مشرّعًا؟ هل شارك أم احتكر؟ هل رأى المحتاج أم حجبه امتلاء مائدته؟ وهل تذكر أن كل لذة عابرة تترك خلفها أثرًا باقيًا في الصحيفة؟ هذه الأسئلة هي التي تنقل المتاع من منطقة الغفلة إلى مقام العبودية.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ تأتي اللازمة التاسعة عقب كلمتي «كلوا وتمتعوا»، وكأنها تقطع فجأة موسيقى اللهو التي ملأت حياتهم. كانت الضحكات عالية، والموائد ممدودة، والرغبات تتكاثر، لكن وراء المشهد كلمة تنتظر: «ويل». لم يسمعوها لأن أصوات المتاع كانت أعلى في داخلهم، لا لأن النذير لم يبلغهم. إن الغفلة لا تعني غياب الحقيقة، بل أن يضع الإنسان حول قلبه من الضجيج ما يمنعه من سماعها.

و«يومئذ» يجعل للمتاع حدًا واضحًا؛ اليوم يأكلون، ويومئذ يلاقون ما عملوا. وبين اليومين تتجلى حقيقة الامتحان: لو جاء الجزاء فور كل ذنب لما بقي معنى للاختيار، لكن الله يمهل الإنسان، ويترك له فسحة يرى فيها الطريقين، ثم يحمله اختياره إلى نتيجته. الإمهال ليس فراغًا من الرقابة، بل مساحة للمسؤولية؛ ولذلك كان أخطر رد على الحلم الإلهي أن يستعمله الإنسان في مزيد من الإجرام.

ولعل من أعمق وجوه التكذيب العملي أن يتعامل الإنسان مع «القليل» كأنه كل شيء؛ ينفق لأجله دينه وضميره وصلاته وعلاقاته، ويبيع الباقي بما يفنى، مع أنه لو سُئل بلسانه لأقر بأن الآخرة خير وأبقى. لكن الإيمان لا يُقاس بما يقوله الإنسان حين يُسأل، بل بما يختاره حين تتصادم القيم والمصالح. عند تلك اللحظة يكشف القرار عن مركز القلب: أيصدق فعلًا بأن الآخرة باقية، أم أن الدنيا في سلوكه هي الحقيقة الوحيدة؟

ومن رحمة السورة أنها لا تترك وصف «القليل» فكرة مجردة، بل تضعه بين مشهدي الدنيا والآخرة حتى يُرى حجمه الحقيقي. فالمتاع إذا نُظر إليه وحده قد يملأ العين، أما إذا وُضع إلى جوار يوم الفصل تقلص. والمشكلة أن الإنسان يقيس الأشياء من مسافة قريبة جدًا؛ يرى اللذة الحاضرة ضخمة لأنها أمامه، ويرى الآخرة بعيدة لأنها غيب. والوحي يصحح المنظور: يقرب البعيد حتى يصير ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، ويصغر الحاضر حتى يصير ﴿قَلِيلًا﴾.

إن النضج الإيماني هو القدرة على رؤية الشيء بعاقبته، لا بلحظته وحدها. يرى المؤمن اللقمة الحرام وفيها سؤال الحساب، ويرى المال الحلال وفيه بركة الشكر، ويرى الشهوة المحرمة وفيها مرارة ما بعدها، ويرى التضحية العابرة وفيها نعيم مقيم. أما الغافل فتستبد به اللحظة؛ يبيع غدًا طويلًا من أجل الآن القصير، ثم لا يدرك خطأ الصفقة إلا بعدما يصبح الاسترداد مستحيلًا.

وهكذا تقف الآيتان على قصرهما كميزان للعمر كله: هناك أكل هنيء لأنه جاء بعد التقوى والإحسان، وهنا متاع قليل لأنه اقترن بالإجرام والتكذيب. وبين الأمرين يختار الإنسان نوع المائدة التي يريدها: مائدة تنتهي ويبقى حسابها، أم مائدة تبدأ بعد الحساب ولا تنتهي؟ وليس الزهد أن يمتنع عن كل طيب، بل أن يمتنع قلبه عن بيع الأبدي بالعابر، وأن يستعمل نصيبه

من الدنيا في الطريق إلى الله، حتى لا يكون ما أكله قد أكل عمره، ولا يكون ما تمتع به قد حرمه الهناء حين يقال للمتقين: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الفصل العاشر

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ: حِينَ يَثْقُلُ الْجَبِينُ عَنِ الْخُضُوعِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

بعد أن طافت سورة المرسلات بالإنسان في آفاق الكون، وذكّرته بيوم الفصل، وأوقفته على أطلال المكذبين، وأرته أصل خلقه، وأشهدته على الأرض التي تضم الأحياء والأموات، ثم نقلته بين ظلّ النار وظلال الجنة، وعرضت عليه مائدة المتاع القليل ومائدة النعيم المقيم؛ انتهت إلى حركة واحدة تختصر موقفه كله من ربه: الركوع. كأن السورة، بعد هذا السيل المتتابع من البراهين والمشاهد والإنذارات، تسأل الإنسان سؤالًا لا يحتاج إلى جواب طويل: هل انحنى قلبك؟ هل خضع عنادك؟ هل لانت منك الجبهة بعدما سمعت ورأيت؟ إن الغاية من المعرفة بالله ليست أن تتكاثر المعلومات في الذهن، بل أن يبلغ اليقين موضع الكبرياء في النفس فيكسره، وأن تتحول الحقيقة من معنى يُناقش إلى عبودية تُعاش.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾؛ أمرٌ موجز، ولكنه يحمل الدين كله في جوهره؛ لأن الركوع ليس مجرد انحناء للظهر، بل إعلان الجسد أن فوقه ربًّا، وإقرار الإنسان أن قامته مهما استقامت في الأرض لا تستغني عن الخضوع لخالقها. في الركوع تنزل الرأس عن علوّها، وينحني الظهر الذي طالما حمل أوهام القوة، وتسكن الجوارح في مقام التعظيم؛ فكأن الجسد يترجم عقيدة القلب إلى هيئة مرئية، ويقول بلغته الصامتة: لستُ السيد المطلق، ولستُ مالك نفسي، وإنما أنا عبدٌ قامت حياتي بأمر الله وستعود إليه.

إن الإنسان يستطيع أن يردد أفكارًا عظيمة عن الإيمان والوجود والأخلاق، لكنه يُمتحن حين يُقال له: اخضع. فالعقل قد يستمتع بالحقيقة ما دامت موضوعًا للتأمل، والنفس قد تعجب بالدين ما دام يزيّن صورتها، لكنها إذا طُلب منها أن تنزل عن هواها، وأن تضبط رغبتها، وأن تترك ما ألفت، وأن تسجد لحق لا تصنعه بنفسها؛ ظهر صدقها من كذبها. ليست المشكلة دائمًا أن البرهان غائب، بل قد يكون البرهان حاضرًا والقلب لا يريد ما يقتضيه؛ لأن اليقين إذا دخل حقًّا لم يترك الكبرياء على حالها.

والركوع المذكور في الآية يحمل معناه الحقيقي في الصلاة، ويدل في امتداده على أصل الخضوع لله؛ فلا قيمة لركوع الجسد إذا ظل القلب منتصبًا في وجه الأمر، ولا يكتمل خضوع القلب إذا أبى الجسد أن يدخل في عبادة الله. الإسلام لا يفصل بين باطن يزعم صاحبه صفاءه وظاهر يرفض الطاعة؛ لأن القلب إذا امتلأ بالتعظيم سرى أثره إلى الجوارح، ولأن الجوارح إذا داومت على العبادة بخشوع ربّت القلب على التواضع. نحن لا نركع لأن الله يحتاج إلى انحنائنا—تعالى سبحانه عن حاجات خلقه—بل لأن أرواحنا تحتاج إلى أن تتحرر من عبادة نفسها.

في الركوع تربية خفية على هدم الاستبداد الداخلي؛ ذلك الطاغية الصغير الذي يسكن النفس ويهمس لها أنها لا ينبغي أن تُؤمر، وأن رغبتها حجة، وأن اختيارها مقدس، وأن الاعتراف بالخطأ انتقاص. ثم تأتي الصلاة مرارًا في اليوم لتضع الإنسان في موضعه الصحيح: يقف، ثم يركع، ثم يسجد، وكأنها تعيد بناء علاقته بالوجود؛ فليس هو مركز الكون، ولا تدور الحقيقة حول مزاجه، ولا يتغير الحق إذا أعرض عنه. إن أعظم ما تمنحه العبادة للإنسان أنها تنقذه من وهم الألوهية الذي يتسلل إليه كلما امتلك قوةً أو معرفةً أو جمهورًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، لم يُتركوا بلا دعوة، بل قيل لهم، ووصلهم الأمر، وقامت في وجوههم الكلمة. وهذا من تمام الحجة وعدل الله، فالإنسان لا يُحاسب على طريق لم يُبيَّن له، وإنما على موقفه بعدما نودي ودُلّ وأُمهل. غير أن السماع ليس كله بالأذن، قد تبلغ الكلمة الأذن ولا تبلغ القلب، وقد يعرف المرء لغة الخطاب لكنه يقيم بينه وبين مدلوله سدًّا من الهوى. ولذلك فالمأساة ليست في أنهم لم يسمعوا قول: «اركعوا»، بل في أنهم سمعوه ثم اختاروا ألا يستجيبوا.

وكم من مرة يُقال للإنسان في حياته: اركع، لا باللفظ وحده، بل بلسان الضعف الذي يطرأ عليه، وبانكسار خططه، وبفقد عزيز، وبمرض يردّه إلى حقيقة جسده، وبنعمة تفيض حتى تستدعي الشكر، وبآية تهز موضعًا غافلًا في داخله. الكون كله يوقظ فيه معنى العبودية؛ كل ولادة تقول له إنك لم تخلق نفسك، وكل وفاة تقول له إنك لا تملك بقاءك، وكل دعاء يُجاب يعرّفه بمن بيده الأمر، وكل باب يُغلق بعد استنفاد الحيلة يذكّره بأن فوق الأسباب مسببًا. ومع ذلك قد يخرج الإنسان من هذه الرسائل كلها أشد قسوة، لا لأن الآيات ضعيفة، بل لأن إرادة الخضوع فيه معطلة.

﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾، لم تقل الآية: لا يستطيعون، بل نسبت إليهم فعل الامتناع، فالركوع كان ممكنًا، وباب التوبة مفتوحًا، وأعضاء الجسد قادرة، لكن الكِبر أثقل الظهر حتى عجز معنًى عمّا يقدر عليه حسًّا. وليس الثقل الحقيقي في البدن، فرب شيخٍ أضعفه المرض وقلبه ساجد، ورب قويّ الجسد لا يستطيع أن ينحني للحق لأن الأنا في داخله أصلب من أن تلين. وقد يكون الإنسان قادرًا على الانحناء لأصحاب السلطان والمصلحة، يبذّل قوله من أجل رضاهم، ويخفض صوته عند أبوابهم، ثم يستثقل ركعات بين يدي الله، فيمنح المخلوق من خضوعه ما يمنعه عن الخالق.

وهنا تنكشف المفارقة الموجعة: من لم يركع لله لا يعيش بلا ركوع، وإنما يركع لغيره. قد يركع للمال وإن ظل ظهره مستقيمًا، حين يبيع له ضميره ويغير لأجله مبادئه؛ ويركع للجمهور حين يجعل رضاه ميزان الحق؛ ويركع للشهوة حين لا يقدر على رد طلبها؛ ويركع للخوف حين يصمت عن الحق حفظًا لموقع أو سلامة؛ ويركع لنفسه حين يرى أفكارها فوق المراجعة. العبودية ليست خيارًا بين أن يعبد الإنسان أو ألا يعبد، بل بين أن يعبد الله وحده فيتحرر، أو تتوزعه أرباب صغيرة تستنزف قلبه وهو يتوهم الاستقلال.

إن الركوع لله لا يذل الإنسان، بل يحرره من كل ذل سواه. فالذي عرف أن عظمته في عبوديته لا يحتاج إلى أن يثبت نفسه بإهانة الآخرين، ولا إلى أن يتضخم كي يخفي خوفه، ولا إلى أن ينافق قويًّا ليشعر بالأمان. يخرج من صلاته وقد استقرت المقامات في نفسه: الله أكبر، وما سواه عبد؛ فلا سلطان يملك رزقه استقلالًا، ولا جمهور يملك قيمته، ولا خصم يملك مصيره. ومن هنا كان المستكبرون عن عبادة الله أسرع الناس خضوعًا لسلطان الدنيا؛ لأن القلب الذي لم يستند إلى الأعلى يبحث عن حماية عند الأدنى.

وليست الدعوة إلى الركوع انسحابًا من الحياة، بل إعدادٌ للقيام فيها بحق. فالذي يركع لله يستطيع أن يقف في وجه الظلم؛ لأنه حسم في محرابه سؤال السيادة، وعرف أن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله. أما الذي لم يتعلم الركوع للخالق فقد يركع للمخلوق وهو يهتف بشعارات الحرية. إن الصلاة لا تربي الإنسان على الانحناء للباطل، وإنما تفرغ قلبه من هيبة الباطل؛ فمن قال في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» أدرك أن كل عظمة بشرية محدودة، وأن المتجبر مهما علا يظل عبدًا تحمله أرض الله ويجري عليه زمان الله.

وفي الآية مواجهة للانفصال بين التصديق النظري والانقياد العملي. قد يقول الإنسان: أنا مقتنع بوجود الله، ثم لا يكون لهذا الإقرار سلطان على يومه وماله وعلاقاته وقراراته؛ كأن الله عنده فكرة كبرى، لا ربًّا له الأمر والنهي. لكن القرآن لا يكتفي من الإيمان باعتراف بارد؛ إذ ليست العبرة أن تعرف أن للكون خالقًا فقط، بل أن تعبده وتطيعه. حتى إبليس لم ينكر وجود الله، وإنما كانت آفته أنه عرف ثم استكبر عن الأمر؛ فكان الخلل في مقام الانقياد، لا في مجرد المعرفة.

إن أخطر ما يصيب الفكر الديني أن يتحول إلى بديل عن العبادة؛ يتحدث صاحبه عن مقاصد الإيمان، ويحلل أحوال الأمة، ويكتب عن تزكية النفس، لكنه لا يجد في خلوته ركعةً صادقة تهذبه. وقد يكتسب من الكلام عن الدين مكانةً تزيد نفسه تضخمًا، فيصير العلم الذي كان ينبغي أن يقوده إلى الخشوع سببًا جديدًا للكِبر. المعرفة التي لا تورث تواضعًا لم تصل بعد إلى غايتها، والبيان الذي لا يحمل صاحبه على مراجعة نفسه قد يتحول إلى حجاب جميل. كلما ازداد العبد معرفةً بالله كان أول أثر لذلك أن يرى فقره إليه بوضوح أكبر.

والركوع كذلك انتقال من ضجيج الخارج إلى حقيقة الداخل. حين ينحني الإنسان بين يدي الله تسقط عنه مؤقتًا ألقابه ومواقعه وصوره التي صنعها أمام الناس؛ لا يبقى في المحراب وزيرًا ولا فقيرًا، مشهورًا ولا مجهولًا، غالبًا ولا مهزومًا، بل عبدًا يؤدي الحركة نفسها التي يؤديها سائر العباد. إن الصلاة تهدم كل يوم طبقات الوهم الاجتماعي، وتعيد الجميع إلى المساواة الأولى: جباه خُلقت من تراب، تتوجه إلى رب واحد، وتنتظر رحمة واحدة، وتسير إلى يوم لا تنفع فيه الرتب المصنوعة.

غير أن الركوع الذي تريده الآية ليس حركة فارغة؛ فقد ينحني الظهر ويبقى القلب هائمًا في السوق، أو متضخمًا بالرياء، أو متعلقًا بنظر الناس. والعبادة صورة وروح؛ صورتها الاتباع الصحيح، وروحها الخشوع والإخلاص. لا تقوم إحداهما مقام الأخرى: فمن ادعى حضور القلب وأسقط ما شرع الله فقد اتبع هواه، ومن حافظ على الهيئة وأضاع معناها فقد حرم نفسه ثمرتها. الركوع الكامل أن ينحني الجسد امتثالًا، وينكسر القلب تعظيمًا، ويخرج السلوك من الصلاة أكثر عدلًا ورحمةً واستقامة.

ولذلك يُعرف صدق الركوع بعد رفع الرأس أيضًا؛ يُعرف حين يقدر الإنسان على ظلم غيره فيمتنع، وحين يستثار غضبه فيعدل، وحين تعرض له خيانة مربحة فيرفضها، وحين يُنصح فلا يستكبر، وحين يخطئ فلا يجعل مكانته مانعًا من الاعتذار. من ركع لله حقًّا انكسرت فيه حدة التعالي على خلق الله؛ فلا معنى لجبهة تقترب من الأرض ثم يرتفع صاحبها على الناس. العبادة التي لا تهذب العلاقة بالبشر تحتاج إلى مراجعة، لأن الذي يعظم الخالق ينبغي أن يرى في حقوق عباده أمانةً من أمره.

﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾؛ صيغة المضارع ترسم الامتناع وكأنه عادة مستقرة، لا زلة عابرة. وكل إنسان قد تفوته طاعة، أو تغلبه غفلة، أو يضعف أمام شهوة، لكن الفرق عظيم بين من يعصي ثم يرجع منكسرًا، ومن يتخذ الإعراض هويةً ويدافع عنه مستكبرًا. المؤمن ليس معصومًا من التقصير، وإنما يمتاز بأن في قلبه بابًا يعود منه؛ إذا ذُكّر تذكّر، وإذا زل استغفر، وإذا قسا قلبه بحث عن دمعة تعيده. أما المكذب فيغلق باب الرجوع لأنه لا يعترف أصلًا بأن عليه أن يرجع.

وتأتي هذه الآية قرب ختام السورة لتكشف أن التكذيب ليس قضية فكرية محايدة؛ إنه يظهر في الجوارح. من كذّب بيوم الفصل لم يرَ حاجةً إلى الركوع، لأن العبادة في نظره خسارة من وقت المتاع القليل، ومن أيقن بالوقوف بين يدي الله رأى الصلاة موعدًا يتدرب فيه قلبه على ذلك الوقوف الكبير. كل صلاة صورة مصغرة للقاء: طهارة، واستقبال، وقيام، وقراءة، وركوع، وسجود، ثم سلام؛ وكأن المؤمن يعود من موعده مع الغيب إلى العالم وقد تجدد فيه معنى العهد.

ومن هنا نفهم لماذا كان ترك الصلاة أمرًا بالغ الخطورة؛ فالصلاة ليست تفصيلًا هامشيًا في بناء الإيمان، بل هي الموضع الذي يظهر فيه الاعتراف بالربوبية في صورة عبودية يومية. إن الذي يرفض أن يقتطع من يومه دقائق يقف فيها بين يدي خالقه يكشف أن الدنيا استولت على زمنه وقلبه، وأن كلمة «الله أكبر» لم تصبح بعد ميزانًا فعليًا لأولوياته. وليس المقصود أن نحكم على أسرار الناس، ولكن أن يفزع كل واحد منا إلى نفسه: ماذا يعني أن يكون لكل شيء في يومي وقت، ثم يضيق الوقت عن الله الذي وهبني اليوم كله؟

الفصل الحادي عشر

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ: الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ بَعْدَ تَمَامِ الْحُجَّةِ

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

للمرة العاشرة تدوي اللازمة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، لكنها في هذا الموضع تأتي كخاتمة الأختام، وكأن موجات الإنذار التي تكررت في السورة قد بلغت شاطئها الأخير. لم يكن التكرار عجزًا عن تنويع العبارة، تعالى كلام الله عن ذلك، بل كان كل تكرار ينزل على موضع جديد من التكذيب؛ مرة بعد ذكر القيامة، ومرة بعد هلاك الأولين، ومرة بعد خلق الإنسان، ومرة بعد دلائل الأرض، ومرة وسط مشهد النار، ومرة بعد نعيم المتقين، حتى حوصرت الغفلة من كل جهة، ولم يبق لها مهرب من البرهان.

إن العبارة الواحدة حين تعود بعد مشهد جديد لا تعود بالمعنى النفسي نفسه؛ فهي تشبه جرسًا يقرع في مراحل الطريق، وفي كل قرعة يزداد اقتراب الخطر. أول مرة يسمعها القلب إنذارًا، ثم يسمعها حكمًا، ثم يراها حقيقةً قائمة، حتى تأتي الأخيرة بعد رفض الركوع فتعلن أن أصل الأزمة كان في الاستكبار. لقد رأوا آيات القدرة، وعلموا إمكان البعث، وشهدوا آثار العدل في التاريخ، وعُرض عليهم المصيران، ثم دُعوا إلى الخضوع فأبوا؛ فماذا بقي بعد هذا كله؟

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؛ سؤال يهز العقل من أساسه، لا لأنه ينتظر تسمية حديث آخر، بل لأنه ينفي أن يكون بعد القرآن كلام أحق بالإيمان منه. فإذا لم يفتح هذا القرآن

قلبًا، بما اجتمع فيه من صدق الخبر، وقوة الحجة، وجمال البيان، ونفاذ الموعظة، وكشف المصير، فأي كلام ينتظره صاحبه؟ وإذا لم توقظه مشاهد الخلق والموت والبعث والجنة والنار، فأي حادثة يظن أنها ستمنحه يقينًا أوضح؟

والإشارة في ﴿بَعْدَهُ﴾ تعظم شأن هذا الوحي؛ فالقرآن ليس حديثًا يضاف إلى أحاديث البشر ثم يُفاضل بينها على مستوى واحد، بل هو كلام الله الذي يعلو ولا يُعلى عليه، يصدق ما بين يديه ويهيمن عليه، ويخاطب الإنسان بعلم خالقه بتركيبه وضعفه ومصيره. كل كلام بشري يحمل حدود صاحبه؛ يبلغه النقص من علمه وتجربته وزمانه، أما هذا القرآن فمن عند من أحاط بكل شيء علمًا، فلا يشيخ مع مرور القرون، لأن الذي أنزله يعلم الإنسان قبل أن تتبدل أدوات حياته وبعد تبدلها.

وليس معنى الآية إغلاق باب النظر أو إلغاء العقل؛ بل القرآن نفسه أقام حجته بتحريك العقل، واستدعى النظر في الخلق والتاريخ والنفس. لكنه يكشف أن المشكلة بعد تمام البيان لا تعود نقصًا في المادة المعرفية دائمًا؛ فقد يطلب المكذب دليلًا جديدًا لا رغبة في الاهتداء، بل تأجيلًا لقرار الخضوع. كلما جاءه برهان قال: لو جاء غيره، فإذا جاء غيره نقل شرطه إلى ثالث؛ لأن ما يهرب منه ليس غياب البرهان، بل النتيجة التي تلزمه بها البراهين.

إن النفس بارعة في تحويل المماطلة إلى سؤال فكري؛ تقول: لم أقتنع بعد، بينما هي تخشى أن يكلّفها الاقتناع تغييرًا في حياتها. ولو آمنت حقًّا لوجب أن تعيد النظر في كسبها وعلاقاتها وشهواتها ومواقفها، ولذلك تظل تبحث عن ثغرة تبقيها في منطقة الانتظار. والاستفهام القرآني يقطع عليها هذه الحيلة: إذا لم يكن هذا الحديث كافيًا، فما الذي سيكون كافيًا؟ وإلى متى يؤجل الإنسان إيمانه وهو لا يملك ضمانًا بأن يمنح مهلة أخرى؟

وكم يقرأ المرء كلامًا كثيرًا بحثًا عما يريحه، فإذا جاء إلى القرآن وجد ما يوقظه، فيهجر الوحي إلى ما هو أقل منه لأنه لا يريد حقيقةً تأمره، بل عبارةً تجامله. قد يفتن الإنسان بكلام البشر لأنه يمنحه معرفة بلا تكليف، أو روحانية بلا عبودية، أو أملًا بلا توبة، أو نجاحًا بلا حساب؛ أما القرآن فيحبه حبًّا أصدق: يبشره، لكنه لا يخدعه، ويرحمه، لكنه لا يسمي مرضه صحةً، ويفتح له باب المغفرة، لكنه لا يحول المغفرة إلى ترخيص للتمادي.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾؛ إن من دلائل قسوة القلب أن يبحث عن التأثر في كل مكان، ثم يمر بكلام الله باردًا؛ تدهشه رواية بشرية، وتحركه قصة عابرة، وتستوقفه حكمة مقتضبة، لكنه يسمع أخبار القيامة فلا يرتجف، ووعد الجنة فلا يشتاق، ونداء التوبة فلا يعود. وليس العيب في القرآن، بل في الحجب التي تراكمت على القلب: ذنب لم يتبعه استغفار، وشهوة أُعطيت حق السيادة، وكِبر منع الاعتراف، وألفة للنص أفقدت صاحبه دهشة اللقاء.

إن الاعتياد على سماع القرآن نعمة من جهة، لكنه قد يصير امتحانًا من جهة أخرى؛ فقد يألف اللسان الآية حتى لا يعود القلب منتبهًا إلى هول معناها. يسمع: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ كما يسمع كلامًا يعرفه، وينسى أن هذا إعلان عن يومه هو، وأنه سيكون واحدًا من المجموعين فيه. التدبر يعيد إلى المألوف جلاله؛ ينزع عن الآية غبار التكرار البشري، لا لأنها تغيرت، بل لأن القارئ عاد إليها بقلب من يعلم أن المخاطَب هو، وأن المسافة بينه وبين تحقيقها ليست إلا بقية عمر مجهول.

وخاتمة السورة بهذا السؤال تضع القارئ أمام مسؤوليته الفردية؛ فقد انتهى البيان، وبقي الجواب في الحياة. لا يستطيع أن يخرج من السورة كما دخلها إلا إذا اختار أن يمر بها مرور الغافلين. لقد سألته المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات، وسأله انطماس النجوم

وانفراج السماء ونسف الجبال، وسألته قطرة الماء والأرض والجبال والرواسي، وسألته النار والظل والشرر، وسألته الجنة والعيون والفواكه، ثم سأله الركوع؛ وكل مشهد يقول له: أين تقف؟

هنا ينكشف أن القرآن لا يريد قارئًا محايدًا؛ لأنه حديث عن مصيره، ولا حياد للإنسان تجاه مصيره. يمكنه أن يدرس تراكيب السورة، ويحلل إيقاعها، ويعدد موضوعاتها، لكن كل ذلك يظل على حافة الغاية ما لم ينته إلى موقف. القرآن لا يكتفي بأن يُعجبك؛ يريد أن يهديك، ولا يكتفي بأن يملأ مكتبتك؛ يريد أن يعمر قلبك، ولا يكتفي بأن يتحول إلى صوت جميل في مجلس؛ يريد أن يصير فرقانًا في القرار، ورحمةً في الخلق، وخشيةً في الخلوة، وثباتًا عند الفتنة.

إن كلمة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في ختام السورة تعيد القضية كلها إلى أصلها: الإيمان. ليست النجاة بكثرة المشاهد التي عرفها الإنسان، بل بما أحدثته فيه؛ وليست الحجة في أن يسمع، بل في أن يصدق وينقاد. والإيمان في القرآن ليس خاطرًا عابرًا ولا موافقة ذهنية باردة، وإنما حياة تتبدل بها موازين القلب: يرى بها الغيب أقرب من خداع الظاهر، والباقي أثمن من العابر، ورضا الله أعظم من تصفيق الناس، والركوع لله رفعةً لا مذلة.

ولعل في ختام السورة بهذا السؤال رحمةً مستترة تحت شدة الإنذار؛ فالسؤال ما دام يُتلى في الدنيا فهو فرصة. لم يُغلق الباب بعد في وجه السامع الحي، ولم تتحول الآيات إلى حكم نهائي عليه، بل ما زال يستطيع أن يجيب بعمله: آمنت بهذا الحديث، وخضعت لربه، وعدت من إعراضي، وركعت بعدما طال قيام كبريائي. الوعيد نفسه رحمة حين يبلغ الإنسان قبل

فوات الأوان؛ لأنه يكشف له الحفرة قبل أن يسقط، ويوقظه من طريق لو تُرك فيه لكان الترك هو الهلاك.

وما أجمل أن يكون جواب العبد عن آخر السورة أولَ تحول في حياته؛ يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، فلا يبحث عن جواب يقوله، بل عن ركعة يؤديها، وذنب يتركه، ومظلمة يردها، وقلب يصالحه، وعهد يجدده مع الله. لأن القرآن حين يُفهم حقًّا لا ينتهي عند آخر الآية؛ هناك يبدأ أثرها. المصحف يُغلق، لكن المعنى يظل مفتوحًا في السلوك، والصوت يسكن، لكن النداء يستمر في الضمير.

هكذا تختم سورة المرسلات رحلتها كما بدأت: بقوة لا تسمح للغفلة أن تستريح. بدأت بقَسَمٍ عن جنود الله التي تمضي بأمره، وانتهت بسؤال عن الإنسان الذي أبى أن يمضي إلى ربه بالإيمان. وبين البدء والختام ظهر الكون كله منقادًا: الرياح مرسلة، والسماء منفطرة، والنجوم مطموسة، والجبال منسوفة، والأرض كفاتًا، والماء مقدرًا، واليوم مؤقتًا؛ وحده الإنسان يحاول أن يخرج عن إيقاع العبودية، مع أنه لا يستطيع أن يخرج عن سلطان الله ولا عن موعده.

فيا من قرأت السورة: لا تجعل آخر عهدك بها الإعجاب بجلالها، بل اجعل جوابك ركوعًا. فما بين التكذيب والإيمان ليس دائمًا كتابًا آخر ينبغي أن يُقرأ، بل كبرياء ينبغي أن ينكسر، وغفلة ينبغي أن تستيقظ، وخطوة ينبغي أن تُتخذ. لقد تم الحديث، واكتملت الحجة، وانكشف الطريقان؛ ولم يبق إلا أن يختار القلب موضعه قبل أن يأتي يوم لا يكون فيه الاختيار، ويُقال للمكذبين للمرة الأخيرة لا على سبيل الإنذار القابل للاستدراك، بل على سبيل الحكم الذي لا يُرد:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

حِينَ تَمْضِي الْمُرْسَلَاتُ وَيَبْقَى الْإِنْسَانُ أَمَامَ اخْتِيَارِهِ

ليست سورة المرسلات حديثًا عن القيامة فحسب، بل هي قيامةٌ مصغّرة تقيمها الآيات في داخل الإنسان قبل أن تقوم القيامة الكبرى في الوجود؛ تهدم في نفسه أبنية الوهم، وتنسف جبال الغرور، وتطفئ نجوم الزينة التي خدعته عن الحقيقة، ثم تجمعه إلى يوم الفصل وهو لا يزال حيًّا، ليرى من بعيد ما ينتظره، ويملك—قبل أن تنتهي المهلة—أن يختار موقعه من المشهد. إنها لا تخبره بالمستقبل ليزداد علمًا وحسب، بل تستحضر المستقبل في قلبه حتى يصير قوةً أخلاقية تعيد ترتيب حاضره، فيأخذ من الدنيا بقدر، ويعامل الخلق بعدل، ويركع لله قبل أن يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه ركوع المتأخرين.

بدأت السورة بقَسَم مهيب: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾، فإذا الوجود من أول آياتها حركةٌ سائرة بأمر الله، لا فوضى فيها ولا انفلات؛ إرسال، فعصف، فنشر، ففرق، فإلقاء للذكر، وكلها أفعال متتابعة كأنها موجات من القدرة الإلهية تدفع العالم إلى موعده المحتوم. وفي مقابل هذه الطاعة الكونية الشاملة يقف الإنسان مزهوًّا بإرادته الصغيرة، يتوهم أن تأخر الحساب إلغاءٌ له، وأن ستر الله عليه نسيان، وأن انتظام العالم من حوله سيستمر إلى الأبد كما اعتاده. لكنه لا يرى أن الكون الذي يألفه ليس مستقلًا عن أمر خالقه؛ فالنجوم التي يهتدي بها يمكن أن تُطمس، والسماء التي تظلله يمكن أن تُفرج، والجبال التي يراها عنوان الثبات يمكن أن تُنسف، وكل ما بدا له نهائيًّا ليس إلا بناءً مؤقتًا ينتظر كلمة الله.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾، هذه هي الحقيقة المركزية التي تسري في عروق السورة كلها. ليس الوعد احتمالًا، ولا يوم الفصل استعارةً أخلاقية، ولا القيامة صورةً رمزية لاضطرابات التاريخ؛ إنها واقعة آتية كما أخبر الله، بكل ما فيها من بعث وجمع وحساب وجنة ونار. ومن هنا تستمد السورة شدتها؛ لأنها لا تناقش الإنسان في فكرة بعيدة يمكنه أن يتبناها أو يتركها دون أثر، بل تحذره من مصير شخصي يتقدم نحوه مع كل لحظة تمضي من عمره. إن الزمن لا يحمل الإنسان إلى الشيخوخة والموت وحدهما، بل يحمله إلى الموعد الذي وُقّتت له الرسل، وحُفظت له الأعمال، ونُصبت فيه موازين العدل.

وفي قلب هذا الإيقاع جاءت اللازمة المتكررة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، عشر مرات، لا بوصفها تكرارًا لفظيًّا، بل ضربات متوالية على أبواب القلب المغلقة. كانت تعود كلما أقامت السورة حجةً أو كشفت مشهدًا، لتقول إن التكذيب لم يعد قادرًا على الاحتماء بعذر؛ فالشاهد في السماء، والشاهد في التاريخ، والشاهد في أصل الخلقة، والشاهد في الأرض التي تضم الإنسان حيًّا وميتًا، والشاهد في حاجته إلى الماء والجبال والرزق، والشاهد في فطرته التي تعرف معنى العدل، ثم جاء خبر الله الصادق ليجمع تلك الشواهد كلها في يقين لا يترك للعناد إلا أن يعترف بأنه عناد.

ولا تعالج السورة التكذيب باعتباره خطأً ذهنيًّا منعزلًا؛ فكل تكذيب بالآخرة يخدر في النهاية إلى صورة من صور الإجرام في الحياة. حين يظن الإنسان أن لا حساب وراء الموت، يخف سلطان الضمير، ويصبح قادرًا على أن يظلم ما دام يملك الإفلات من القانون، وأن يخون ما دام يستطيع ستر الخيانة، وأن يأكل حقوق الضعفاء ما داموا لا يملكون استردادها. ولهذا يتكرر في السورة وصف المكذبين بالمجرمين؛ لأن إنكار يوم الفصل لا يبقى

فكرة ساكنة، بل ينفذ إلى المال والسلطة والشهوة والعلاقات، ويحرر الأهواء من الخوف الذي يردعها عن ابتلاع العالم.

إن الإيمان بالآخرة ليس ترفًا روحيًّا يضاف إلى العقيدة، بل أساس لحماية المعنى الأخلاقي للوجود. فمن دون يوم تعود فيه الحقوق إلى أصحابها، تبقى مظالم كثيرة بلا جواب، ودموع كثيرة بلا إنصاف، وتضحيات كثيرة كأنها ضاعت في صمت التاريخ. كم من مظلوم مات قبل أن يرى عدلًا، وكم من طاغية أغمض عينيه على فراش مريح بعدما ملأ حياة الناس خوفًا، وكم من محسن بذل نفسه ثم غادر الدنيا مجهولًا! تأتي سورة المرسلات لتقول إن الصفحة التي أُغلقت في الأرض ستُفتح عند الله، وإن الموت لا يسوّي بين الجلاد وضحيته، ولا بين من أطاع ومن أجرم، بل ينقلهما إلى يوم الفصل حيث تُستخرج الفروق التي حاولت الدنيا طمسها.

ولذلك لم تسمه السورة يوم الجمع وحده، بل ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؛ ففي الدنيا تختلط الصور، وقد يرتدي الظلم ثوب السياسة، والطمع ثوب الكفاءة، والخيانة ثوب الذكاء، والنفاق ثوب الحكمة، ويُتهم المخلص لأنه لا يحسن تسويق إخلاصه، ويُرفع صاحب الباطل لأنه يملك أدوات المشهد. أما هناك فتسقط الأسماء التي صنعها البشر، وتظهر الحقائق بأسمائها التي سماها الله؛ لا تنفع المجرم بلاغته في تبرير الجريمة، ولا يحتاج المظلوم إلى قوة ليُسمع صوته، ولا يبقى بين السر والعلن حجاب.

ومن أعمق ما تربي عليه السورة أن قدرة الله على البعث ليست قضية تحتاج إلى البحث بعيدًا؛ فالإنسان نفسه دليل قائم عليها. ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾؛ تلك البداية التي يهرب منها المتكبر لأنها تهدم أسطورة اكتفائه بنفسه. لم يخلق الإنسان مادته الأولى، ولم يختر

أبويه، ولم يرسم ملامحه، ولم يحدد لحظة دخوله العالم، ثم عاش في رحم لم يكن يدير فيه شيئًا، بين ظلمات تحوطه، وقدرٍ يكوّنه عضوًا عضوًا. فمن أوجده أول مرة من ذلك الماء، وأودع فيه العقل والسمع والبصر والذاكرة والوجدان، لا يعجزه أن يعيده بعد موته.

لكن السورة لا تذكر الأصل لمجرد إقامة الدليل على البعث؛ إنها تضع الإنسان أمام حقيقة التواضع. فكيف يستكبر من كانت بدايته ماءً مهينًا، ونهايته جسدًا تحمله الأرض؟ وكيف يظلم غيره من لم يصنع قوته، ولم يضمن بقاءها، ويمكن لمرض صغير أن يرد جسده القوي إلى عجز البداية؟ إن تذكر الخلق ليس إهانة للإنسان، بل إنقاذ له من الإهانة التي يصنعها الغرور؛ فالذي يعرف أصله لا يتضخم، والذي يعرف تكريم الله له لا يحتقر نفسه، فيعيش بين تواضع العبودية وكرامة الاستخلاف.

ثم تقودنا السورة إلى الأرض: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾. إنها تحمل خطونا حين نعيش، وتضم أجسادنا حين نموت، كأنها الوعاء الكبير الذي لا نغادر سلطانه في مرحلتي الرحلة. فوقها تتصارع الأقدام على الحدود والممتلكات والمناصب، وفي باطنها تتجاور الأجساد وقد سقطت عنها كل علامات التفاضل الزائف. وما أقسى غفلة الإنسان حين يملأ حياته خصومةً على شبر من الأرض، ثم لا يتذكر أن الأرض نفسها ستأخذه كاملًا، وأن ما اقتتل عليه سيبقى وراءه بينما ينفرد هو بعمله.

غير أن الأرض ليست قبرًا فقط؛ إنها مهد الحياة أيضًا، وفيها الرواسي الشامخات، ومنها الماء الفرات. وبذلك تجمع السورة بين دلائل الرحمة ودلائل القدرة؛ فالإله الذي يحذر عباده من العذاب هو نفسه الذي أقام لهم الأرض، وثبتها، وسقاهم ماءً عذبًا. لم يأت الوعيد من خصم يريد هلاكهم، بل من رب أغدق عليهم أسباب الحياة، وأرسل الرسل لكي ينقذهم

من سوء اختيارهم. ومن هنا كان التكذيب قبيحًا مضاعفًا: ليس رفضًا لحجة ظاهرة فقط، بل جحودًا لنعمة محيطة، واستعمالًا لعطاء الله في طريق الإعراض عنه.

وعندما تبلغ السورة مشهد النار يتغير الخطاب من إقامة الأدلة إلى المواجهة: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. يا لها من كلمة تختصر مأساة التكذيب كلها، فقد كان العذاب خبرًا فصار وجهة، وكان الوعيد صوتًا في الدنيا فصار واقعًا يُدفعون إليه. ما كذبوا به لم يختف لأنهم أنكروه، بل ظل ينتظرهم حتى جاءت اللحظة التي صارت فيها الحقيقة أقوى من كل إمكان للإنكار. إن إغماض العين لا يمحو الهاوية، والسخرية من النار لا تطفئها، وتأجيل التوبة لا يؤجل الأجل.

ويجيء الظل في ذلك المشهد ليقلب معنى الأمان: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾. كانوا في الدنيا يطلبون ظلالًا مصنوعة من المال والسلطة والأنصار، ويحسبون أن كثرة الوسائل تمنحهم حصانةً من كل سقوط، فإذا الظل الذي ينتهون إليه لا يبرد ولا يحمي. إن كل حماية انفصلت عن الله حماية مؤقتة، وكل جدار احتمى به الظالم سيصبح شاهدًا على خوفه لا دليلًا على قوته، وكل تحالف بُني على الباطل يتفكك عند أول باب من أبواب الآخرة.

وفي مقابل ذلك العنف الناري تفتح السورة فجأة واحة المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾. هنا الظلال حقيقية، لأنها من رحمة الله، والعيون جارية لا يخالط ماءها كدر، والفواكه لا تحمل ألم الانقطاع. هذا الانتقال ليس راحةً فنية في بناء السورة فحسب، بل إعلانٌ أن القرآن لا يريد أن يسوق الإنسان بالخوف وحده؛ فالقلب يحتاج إلى أن يعرف ما يهرب منه، وإلى أن يرى كذلك ما يسير إليه. الرهبة تمنعه من

السقوط، والرجاء يمنحه قوة المسير، وبينهما تنضج التقوى فلا تتحول إلى أمن كاذب ولا إلى يأس قاتل.

والتقوى في السورة ليست عزلةً خائفة عن الحياة، بل عمل وإحسان: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. لم يُبنَ المصير على ادعاء، ولا على اسم موروث، ولا على انتماء يرفعه صاحبه دون أن يصدقه العمل. الإيمان الذي لا ينتقل إلى اليد حين تعطي، وإلى اللسان حين يصدق، وإلى السلطة حين تعدل، وإلى الغضب حين ينضبط، وإلى الخلوة حين تستحي من نظر الله؛ يظل دعوى معرضة للانكشاف. التقوى تحفظ الإنسان من الشر، والإحسان يدفعه إلى صناعة الخير، وكمال الطريق أن يجمع بين سلامة اليد وجمال الأثر.

وما أرحم قول الله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لمن أحسن ثم جُحد إحسانه، ولمن أعطى ولم يُشكر، ولمن حمل عبئًا لم يعرف الناس وزنه، ولمن ثبت في أيام لم يرَ أحد معركته الداخلية. إن أعين البشر قد تخطئ موضع القيمة، وقد ينسى الناس المعروف، وقد ينسبون الفضل إلى غير صاحبه، لكن الإحسان الذي دخل في علم الله لا يضيع. يكفي المحسن أن يكون عمله قد وصل إلى الموضع الذي لا تصل إليه يد النسيان.

ثم تقيم السورة مقابلةً لا تُنسى بين مائدتين: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ للمتقين، و﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ للمجرمين. اللفظ متقارب، لكن المسافة بين المصيرين أوسع من الدنيا والآخرة. هناك متاعٌ هنيء لأنه لا ينتهي ولا يعقبه حساب مؤلم، وهنا متاعٌ قليل لأن الزمن يأكله، والخوف ينغصه، والموت ينتظره. ليست المشكلة أن يأكل الإنسان من طيبات الدنيا، بل

أن يأكله ما يأكل، أن تبتلع اللذة عمره، ويستنزف المال ضميره، وتتحول النعمة من جسر إلى الله إلى حجاب عنه.

لقد لخصت كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ حقيقة الدنيا حين تُفصل عن الآخرة؛ فكل ما ينتهي قليل، ولو ملأ العين في لحظته، وكل ما يُترك قليل، ولو أفنى صاحبه عمره في جمعه. كم من شيء بدا للإنسان في ساعة الشهوة كأنه يستحق أن يخسر من أجله نفسه، ثم لم تمضِ الأيام حتى فقد بريقه وبقيت تبعته! وكم من طاعة بدت ثقيلة في لحظة، ثم تحولت في الذاكرة إلى نور وسكينة! إن البصيرة هي أن يرى الإنسان الأشياء لا في لحظة إغرائها، بل عند نهايتها، ولا يسأل فقط: ماذا سأحصل الآن؟ بل: ماذا سيبقى لي مما حصلت؟

ولا تدعو السورة إلى كراهية الحياة، وإنما إلى تحريرها من الكذب. فالذي يؤمن بالآخرة يحب الدنيا على حقيقتها: مزرعة لا جنة، وطريقًا لا وطنًا أخيرًا، وفرصةً لا ملكًا خالدًا. يستمتع بالحلال شاكرًا، ويحزن دون أن ييأس، ويحب دون أن يعبد من يحب، ويمتلك دون أن تتملكه الأشياء، ويعمل في الأرض بكل قوته دون أن يدفن قلبه فيها. أما من يطلب من الدنيا كمال الأمان ودوام اللذة، فإنه يعذبها ويعذب نفسه؛ لأنها لم تُخلق لتمنحه ما لا يوجد كاملًا إلا عند الله.

ثم تنتهي السورة إلى الركوع: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾. وكأن كل ما سبق كان يمهد لهذه الحركة. بعد أدلة القدرة، ومشاهد البعث، ومصائر المجرمين والمتقين، لم يبق السؤال: هل فهمتم؟ بل: هل خضعتم؟ فالحقائق الدينية لا تبلغ تمام أثرها حين تستقر في الذهن، وإنما حين تنزل من العقل إلى الجبهة، ومن المعرفة إلى العبادة، ومن التأثر إلى الطاعة. الركوع هو جواب الجسد عن برهان الروح.

وليس رفض الركوع تحررًا كما تتوهم النفس؛ فالذي لا يركع لله يركع لما دونه، ولو ظل واقف القامة. يركع لخوفه حين يمنعه من الحق، ولطمعه حين يشتري به صمته، ولصورته أمام الناس حين يخشى سقوطها أكثر من سقوطه عند الله، ولشهوته حين تقوده حيث لا يريد. أما الذي يضع جبهته لله فإنه يرفع روحه فوق كل عبودية سواه؛ لأن من عرف العظيم حقًّا صغرت في عينه عظمة المتجبرين.

وهكذا تكشف سورة المرسلات أن المعركة الكبرى ليست بين الإنسان والدليل، بل كثيرًا ما تكون بينه وبين كبريائه؛ فالدليل قد يملأ الأفق، لكن النفس تخشى أن تؤمن لأن الإيمان يطالبها بالنزول عن عرشها. لذلك لم تختم السورة بحجة جديدة، بل بسؤال يستنفد كل الأعذار: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾. إذا لم يؤمنوا بكلام الله، فأي كلام ينتظرون؟ وإذا لم توقظهم القيامة وهي تُعرض أمام قلوبهم بهذا الحضور، فأي حادثة تملك أن توقظهم؟ وإذا لم يحنوا جباههم بعد تمام الحجة، فهل المشكلة حقًّا في غياب النور، أم في عين قررت ألا تُبصر؟

إن القرآن لا يحتاج إلى حديث يأتي بعده ليكمله؛ إنما نحن الذين نحتاج إلى قلب جديد نأتي به إليه. نحتاج أن نقرأه لا بوصفه أثرًا مباركًا من الماضي، بل خطابًا حيًّا يعرف أسماء أمراضنا وإن لم يذكر أسماءنا، ويكشف أوهام حضارتنا وإن نزل قبلها بقرون، ويضع يده على موضع الخلل في الإنسان مهما تبدلت أزياؤه وأدواته. فما زال الإنسان هو الإنسان: يخاف الفناء، ويطلب الخلود في الأشياء، ويغتر بالقوة، ويؤجل التوبة، ويبحث عن ظل يحميه؛ وما زال القرآن يرده إلى الحقيقة ذاتها: لا ملجأ من الله إلا إليه.

وحين نغلق سورة المرسلات ينبغي ألا نشعر أننا غادرنا مشاهدها، فنحن لا نزال نسير داخلها. المرسلات ماضية بأمر ربها، والنجوم تمضي إلى أجلها، والسماء تحمل موعدها، والجبال تنتظر نسفها، والأرض تضم كل يوم أحياءً وتستقبل أمواتًا، والماء المهين يصير بشرًا يملؤون الطرقات، ثم يعودون إلى التراب، ويوم الفصل يقترب وإن بدا بعيدًا. لسنا قراءً يقفون خارج السورة، بل نحن بعض الذين تتحدث عنهم، وأعمالنا الآن تكتب موضعنا بين ظل النار وظلال الجنة.

فيا أيها الإنسان، لا تسأل متى يكون يوم الفصل بقدر ما تسأل: كيف سألقاه؟ ولا تنشغل بمقدار ما بقي للعالم عن مقدار ما بقي لك؛ فقد تقوم قيامة المرء بموته قبل أن يرى القيامة العامة. ولا تجعل تكرار الوعيد يمر على أذنك حتى يألفه قلبك؛ فلعل اللازمة التي قرأتها عشر مرات لم تتكرر لأن المعنى قديم، بل لأن أبواب الغفلة فيك كثيرة، وفي كل مرة كانت تقرع بابًا آخر.

وإذا وجدت في قلبك خوفًا بعد هذه السورة، فلا تطرده؛ هذبه بالرجاء واجعله قوةً للعودة. الخوف الذي يقود إلى الله رحمة، أما الخوف الذي يقود إلى اليأس فليس هو مراد الوحي. ما دام القلب ينبض، فباب الركوع مفتوح، وما دام اللسان قادرًا على الاستغفار، فطريق الرجوع لم ينقطع. لقد أنذر الله عباده لأنه يريد نجاتهم، وكرر الوعيد لأن الغفلة ثقيلة، وأراهم النار لكيلا يدخلوها، ووصف لهم الجنة لكيلا يبيعوها بالقليل.

اللهم اجعلنا ممن إذا ذُكّروا تذكروا، وإذا قيل لهم اركعوا ركعوا، وإذا زلوا عادوا، وإذا أحسنوا لم يغتروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا مُنعوا صبروا، وإذا أقبل عليهم متاع الدنيا لم يبيعوا به ما عندك. اللهم اجعل القرآن فينا فرقانًا يميز الحق من الهوى، ونورًا يكشف

الطريق، ورحمةً تجبر ما انكسر، وإنذارًا يوقظ ما غفل، ولا تجعلنا ممن يسمعون آياتك ثم يمضون كأن الخطاب كان لغيرهم.

ولنحمل من السورة سؤالها الأخير لا لنتجادل به، بل لنعيش جوابه؛ فالإيمان ليس كلمة نختم بها القراءة، وإنما عهد نفتتح به ما بقي من العمر. فإذا أُغلق المصحف فلتُفتح الطاعة، وإذا سكن صوت التلاوة فليتكلم العمل، وإذا رفعت العين عن السطر فلتنخفض الجبهة في المحراب؛ فذلك هو الجواب الذي يليق بآخر آيات المرسلات، وذلك هو الطريق الذي ينجو به الإنسان من أن يسمع يوم الفصل:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾،

ليسمع بدلًا منها، في ظل الرحمة وهناء الرضوان:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.